الفصل الثاني
مفاهيم سوسيولوجية

الجماعات

الطبقات

المجتمعات

المفهوم الأول
الجماعات

عندما يدرس علم الاجتماع «المجتمع» دراسةً واقعية فإنه يركّز على التجمعات البشرية القائمة فعلًا باعتبارها المكوّن الأساس، بدورها هذه التجمعات تتميّز وتختلف اختلافًا بيّنًا عن غيرها بآلية الممارسة وطبيعة النشاط، حيث إنها تعيش واقعًا اجتماعيًا محددًا وتمارس نشاطها المتنوع اقتصاديًا وسياسيًا ومعرفيًا ضمن مجال جغرافي محدد وظروف تاريخية متوارثة، ومن هنا برزت فكرة تنميط المجتمعات إلى أنماط رئيسة متعددة تقوم على الاختلافات القائمة بين الجماعات. ولو أردنا أن نحدد مفهومًا للجماعات بماذا يمكن وصفها وتحديدها: هل يقصد بها جماعة العائلة أم علاقة القرابة؟ هل هي مكوّن اجتماعي أكبر من العائلة والقرابة وجماعة الحي وسكان القرية؟ هل تتشكل بمظاهر أخرى غير المتعارف عليها من جماعة الصحبة، جماعة القرابة، جماعة الأقلية، جماعة العرق الواحد في الاغتراب وجماعة الشبيبة في الضواحي. مختلف أنواع هذه الجماعات اهتم بها علم الاجتماع باعتبارها مظاهر التجمع البشري ونواته. وعندما نتفحّص مفهوم الجماعة نجد أن أنساقها الاجتماعية تقوم على ثلاثة أسس عامة عند التكوين:

1 . **الشكل الأسري**، حيث تعتمد قاعدة الانتماء القائمة على روابط محددة. .وغالبًا ما يكون الشعور بالصفات المتقاربة والمصالح المشتركة الهدف من اللقاء والاجتماع والانتماء.

2 . **الشكل المكاني**، وتقوم على أساس أن عددًا من الأشخاص لهم محل إقامة مشترك و يعيشون في منطقة واحدة ومن هذه الزواية تعتبر القرى والمدن والمناطق الإقليمية جماعات اجتماعية ـ إقليمية وعضوية الناس فيها

تقوم بناءً على الإقامة رغم وجود اعتبارات أخرى (تنوع ديني/ تنوع عرقي/ تنوع مناطقي ،مثال على ذلك شبيبة الضواحي).

3 . الشكل الخاص ويقوم على أساس الاهتمام بنوع معين من النشاط بغض النظر عن المكان والقرابة، كجماعات الأدب أو الموسيقى أو النشاط الرياضي.

1) جماعة العائلة؟

في كنف كل عائلة عاش أيٌّ واحد منا وفي مرحلة لاحقة يهيئ نفسه لتأسيس عائلة، قد يختلف مفهومها بين مجتمع وآخر إلا أن القاسم المشترك في كل أنماط العائلة هو التقاء شخصين بالغين من ذكر وأنثى، قادرين على إنجاب الأطفال ورعايتهم وتربيتهم وعلى أن يكونوا مسؤولين أمام أنفسهم وتجاه المجتمع. وقد لاحظ أكثر من باحث في مجال الأسرة أن العائلة الأساس تنطلق من زوج وزوجة وأولاد وهذا ما يسمى بالعائلة النواة لتتوسع مع مرور الزمن على أكثر من جيل بين أحفاد وأبناء وأجداد وتصبح حينئذ عائلة ممتدة، في هذا النمط من العائلة تتداخل علاقات الرعاية والتربية ويعيش الجميع في مسكن واحد أو بمساكن متجاورة بعلاقات تواصل يومي مباشر تحت إمرة سيّد يكون الجد أو الأب النافذ أو الابن الأكبر وهذا ما يعرف بالسلطة الأبوية. (PATRIARCHY) وقد أشار السوسيولوجي البريطاني (أنطوني غدنز) بحديثه عن العائلة إلى وجود نمطين آخرين منها:

1 ـ العائلة الموجهة Orientation family ويشير إلى نمط من العائلات يتأثر بسمات المكان الذي ترعرع فيه، حتى تتسم بطابعه وتتخذ هويته (عائلة شرقية / عائلة غربية. . .عائلة حضرية . .عائلة بدوية الخ).

2 ـ العائلة الانتقالية (precreation family) ويقصد بها ما يحدث مع عائلة تنتقل من محيط لآخر لينشأ مع الوقت نمط عائلي متحرر من جذر عائلي محافظ، كما هو الحال مع العائلات المهاجرة من الشرق إلى الغرب المختلفين في العادات والتقاليد ليظهر نوعًا من التنازع بين ثقافة الأصل الآتية

مع الآباء المهاجرين الأوائل وثقافة الأبناء الذين نشأوا في مجتمع آخر تشرّبوا قيمه وأصبحوا في ثقافة أخرى مختلفة عن آبائهم.

إلى جانب هذه الأنماط الفردية (monogamy) من الزواج، لاحظ الباحث George Murdock بعد دراسته أكثر من 565 مجتمعًا بشريًا أن هناك حوالي 80% من المجتمعات عرفت نمط العائلة القائم على الزواج المتعدد (polygamy). ورغم أن هذا النمط من الزواج آخذٌ في الانحسار فإنه لا تزال هناك مجتمعات وخاصة في أفريقيا يتزوج فيها الرجل أكثر من سيدة، وهو ما يعرف بالزواج الضرائري (polygyny) أي زواج رجل واحد بأكثر من امرأة في نفس الوقت، يعيشون في منزل واحد، يتشارك فيه الجميع الواجبات المنزلية والمسؤوليات الخاصة بالتربية والرعاية والعمل الزراعي، يقابله ـ وحسبما أظهرت الدراسات الأنثروبولوجية ـ **الزواج السدائي** (polyundry) أي وجود أكثر من زوج لامرأة واحدة، بمعنى تعدّد أزواج وليس تعدّد زوجات كما في النمط الآنف، (لا يزال هذا الزواج مأخوذ به في منطقة بتدوس/ شمال الهند)، انتشر هذا الزواج بكثرة لدى الجماعات البشرية التي شهدت انخفاض نسبة الإناث نتيجة عادة جاهلية تدعو إلى «قتلهن»، فأصبحن أقلية إزاء عدد الذكور فكانت ظاهرة الزواج المتعدد بالأزواج. ورغم أن نمط الزواج المتعدد آخذ بالانحسار ويعتبر من ظواهر الماضي، إلا أن بعض الدول أعادت إليه اعتباره فأقرّت تشريعات تسمح فيه زواج الرجل بأكثر من واحدة لمن يرغب كحلّ لتخفيف حالة العنوسة المتزايدة في صفوف البنات أو إعطاء الفتاة مبادرة طلب يد الشاب للبحث عن شريك حياة في حال رغبتها بتأسيس عائلة (بعض مقاطعات روسيا).

1.1: ما هي وظيفة العائلة؟

تعتبر العائلة نواة التنظيم الاجتماعي وظاهرة التعاون والالتزام والمودة بين أعضائها من أجل استمراريتها ومكانتها في المجتمع، لهذا يكون الفرد في العائلة جزءًا تابعًا أكثر منه فردًا مستقلًا، والعلاقات القائمة هي علاقة انتماء ومسؤولية حيث يصبح ـ وبموجب هذه العلاقة ـ كل فرد في الأسرة ليس

مسؤولًا فقط عن تصرفاته الشخصية الخاصة وإنما عن تصرفات الأعضاء الآخرين (الأشقاء) من هنا يلاحظ كيف أن القرارات التي تخص الأسرة غالبًا ما تكون جماعية، وبناءً على هذه المفاهيم: الجماعية/ الشراكة العاطفية/ العلاقة الحميمية/ الالتزام، تتجلى وظائف العائلة وأبرزها:

1 . **تحديد المركز الاجتماعي** للفرد، رغم أن هذا الدور تضاءل الآن حيث أصبح بإمكان الفرد أن يحدد مركزه الاجتماعي بنفسه، بكفاءاته، بجدارته في العلوم وبانتمائه إلى جماعات أخرى غير العائلة (الحزب السياسي/ التنظيم الديني)، لازال البعد العائلي فاعلًا في الأوساط التقليدية، ففي بلد كلبنان ـ المتعدد الطوائف والجماعات ـ فإن الهوية الاجتماعية تتحدد بالانتماء العائلي أولًا وبالانتماء المذهبي ثانيًا فالطائفي ثالثًا فالمناطقي رابعًا.. وربما هذه العناصر تكفي لتحديد موقع الفرد ومنحه ليس وجودًا ماديًا فحسب بل موقعًا اجتماعيًا وثقافيًا أيضًا.

2 . **تأمين السند**، تعتبر الأسرة كنواة صغرى والعائلة الممتدة كنواة كبرى المرجع الأساسي للدفاع عن حقوق الأفراد وحمايتهم خلال الأزمات واللحظات العصيبة حيث نلاحظ كيف أنه تتكاتف العائلة إزاء المصاب[1]. وتتضح صورة هذا التعاضد عندما تحل عبارة «نحن» «إننا» أو «العيلة» محل الأنا المنتظرة، وهنا من الواضح أن المتكلم يتحدث لاشعوريًا باسم عائلته أو جماعته، لأن التحدث عن العائلة يمثل هنا إحدى الاهتمامات المفضلة لجميع الفئات التي تشكل علاقة القرابة بالنسبة لها أولى دعائم الحياة الاجتماعية.

3 . **تقديم التربية**، الذي يتجلى عبر جملة القيم والمعارف والمعايير الأخلاقية التي من الضروري أن تمدها الأسرة لأبنائها كي ينشأوا متوافقين مع المجتمع، وإذا تراخت ولم تقم الأسرة بها بالشكل الأمثل فقد يخرج الأبناء منحرفين. وتعتبر هذه المهمة ـ الوظيفة من أجلّ الوظائف ومن المبادئ

(1) وهذا ما يسمى بالعصية ويقال له بالعامية اللبنانية العنصور أو لفّة الشرش.

الأساسية والمنطلقات التي تعمل على بلورة الشخصية الاجتماعية الموزونة، وأي خلل أو افتقاد لبعض هذه المبادئ قد ينشأ الأولاد غير عابئين بمسؤوليتهم واحترامهم لمواقع الآخرين، وهذا ما يعبر عنه في الحياة الريفية اللبنانية عندما يراد تعيير أحدهم أو إهانته بالقول: «يا بلا تربية» وكأن في تلقي أصول التربية القويمة المعايير المهيأة للتواصل مع الآخر بشكل أفضل.

وأيًا كان نمط الأسرة أو طبيعة الأدوار التي تتولاها فإن ضرورة القيام بوظيفتها مسلّمة دقيقة لابد منها لسلامة المجتمع لهذا يُلاحظ كيف أن المجتمع يتحرك بالحزم، عندما تتقاعس الأسرة عن القيام بدورها. كما يحدث في مجتمعاتنا إزاء صيغة المعاشرة من دون زواج الآخذة في الظهور، وبالمثل فعلت الحكومة الصينية مع انتشار ظاهرة المساكنة عبر إطلاقها حملة اجتماعية تطالب العودة إلى المفاهيم التقليدية في الزواج والحياة الأسرية تجنبًا لمظاهر التفكك الأسري والاجتماعي. مما يعني أن العائلة كمؤسسة والزواج كرباط مقدس بين اثنين آخذ في التحول.

2.1: ما هي أبرز التحولات التي شهدتها الأسرة؟

كانت العائلة -ذات زمن ـ المؤسسة، التي تعمل على «إنتاج الأولاد» لحاجتهم في العمل الزراعي أو الحرف اليدوية، وكان يعتبر الزواج والإنجاب ضرورة لاستمرارية وجود العائلة ونشاطها الاقتصادي.. غير أن هذا الواقع لم يتبدل بوتيرة سريعة بل استغرق وبحسب ملاحظات الباحث البريطاني (لورنس ستون) ثلاثة عقود من الزمن حتى وصلنا إلى نمط جديد من الأسر يُعرف ب open lineage family الذي يتسم بالمتغيرات التالية:

1 ـ تبدل في طبيعة دور الرجل والمرأة على حد سواء لناحية خروج المرأة إلى العمل، تقليديًا كانت الأدوار موزعة في الأسرة وفق إطارين: مجال يكافح فيه الرجال من أجل الرزق ومجال داخل المنزل تتولاه النساء. أما اليوم تبدلت الأدوار إلى حد ما وأصبح هناك تعاون ومساواة في مختلف وجوه الحياة الأسرية ولا غرو من يقوم به الرجل أو المرأة. فقد بينت دراسة أمريكية أن المرأة الأمريكية العاملة تعطي إلى جانب عملها خارج المنزل حوالي 60 ساعة أسبوعيًا

من وقتها للقيام بواجباتها المنزلية، و70 ساعة إذا كان لديها أولاد. وكذلك بينت دراسة مسحية لبنانية ارتفاع مؤشر مشاركة النساء في قوة العمل والنشاط الاقتصادي من 9% في العام 1970 إلى 15% في العام 1997[1].

2 ـ **تبدل في نمط الاستهلاك** وزيادة طلب العائلة للكماليات على الحاجيات، فمع انتشار المؤسسات الصناعية المتنوعة والدعاية والإعلان والمنافسة للسلع الاستهلاكية تبدلت خيارات الحياة نحو الرغبة في الرفاه الاجتماعي. فالمناسبات الاجتماعية والمواصلات والملابس والأثاث المنزلي المتجدد والكومبيرتر والإنترنت والصحون اللاقطة والهواتف الخليوية، أصبحت مجالات إنفاق متطلبة لدى أسرة اليوم مما ترتب عليه تحول في مستوى المعيشة والاستهلاك نحو الترفي والكمالي بعدما كان للحاجة والضروري.

3 ـ **تبدل النظرة إلى التعليم** مع بروز قوانين تشريعية جديدة تقول بأحقية التعليم وإلزاميته. حيث أخذت الحكومات توصي الأهل بعدم ترك الأولاد دون مدرسة إطلاقًا ومنعهم من العمل قبل سن معين (12 سنة حسب قانون العمل اللبناني) أصبح هناك تحول في مستوى الثقافة العامة، فتنوعت التخصصات وظهرت الإبداعات التعبيرية من موسيقى وفن وعلوم وأزياء وطبخ ومهارات تعليمية مستحدثة تلائم متطلبات الحياة المعاصرة.

4 ـ **تبدل في الروابط العاطفية**، أي نزوع الرجال والنساء إلى تقاطع المصالح في الزواج لا الإقدام عليه بداعي الحب. فكما الناس يتزوجون لنداء الحب مع شريك، أصبحوا يُطلّقون عند الافتقار إليه، وهكذا تتصاعد حالات التوتر بين الرجل والمرأة، وتصبح حياتهم متأرجحة بين الأمل والندم والمبادرة والمحاولة من جديد... وهذا ما أدى إلى انتشار حالة الطلاق بشكل مذهل، فقد أشارت دارسة أمريكية إلى أن هناك حالة طلاق إزاء حالتي زواج، وفي إيطاليا هناك حالة طلاق كل ثلاث دقائق، وفي الكويت هناك 40 حالة طلاق مقابل 100 حالة زواج.

5 ـ **تبدل في مفهوم الإنجاب** الذي حدث بدوره نتيجة انشغال الأب أو الأم من جهة، وشيوع ثقافة تنظيم الأسرة ووسائل منع الحمل من جهة أخرى،

(1) عن تقرير: الأوضاع المعيشية للأسر اللبنانية العام 1997، إدارة الإحصاء المركزي، 1998.

فضلًا عن أسباب أخرى كعدم الاستطاعة المادية المناسبة لعدد أكبر من الأولاد وعدم رغبة المرأة بالإنجاب حفاظًا على نضارتها أو لانشغالها خارج المنزل بوظائف ونشاطات اجتماعية.

6 ـ تبدل في طريقة التربية حيث انحسرت عمليات الإرشاد والتوجيه والتنشئة المفترضة من الأهل مع ازدياد ظاهرة الحاضنات والمربيات والخادمات في المنازل، وأصبح هناك بدائل عن التفاعل الأسري الحميم مع دخول الإنترنت والتلفزة ووسائل الترفيه.

في ظل هذه المعطيات تبرز صورة عائلة عصرية تشهدها أغلب المجتمعات التقليدية منها والمعاصرة، هناك نموذجًا جديدًا من الأسر قوامه التشارك في الأعباء والمسؤوليات والسلطة والقرارات بشكل قلّ نظيره. حيث أصبحت حرية الاختيار متاحة أمام الأولاد لما يرغبونه انسجامًا مع الفلسفات الحديثة التي تدعو بضرورة إعطاء الأولاد المسؤولية والثقة لاتخاذ القرارات وتقرير مصيرهم.

3.1: العائلة والزواج في لبنان.. نموذجًا

تلعب العائلة في لبنان دورًا هامًا في حياة الفرد، فهي الأسرة بالمقام الأول، والجذر الذي يشد النسب والفروع نحو التقارب والعصبية في المقام الثاني، ورغم التغييرات التي طرأت على الأسرة في لبنان من انحسار الزواج المبكر وارتفاع نسبة التزاوج بين الأفراد المتقاربين في العمر، وتجنب الارتباط من ابنة العم وانخفاض معدل الولادات (ثقافة تنظيم الأسرة) لازالت العائلة صورة مصغرة للمجتمع اللبناني لجهة انبثاقها ـ أولًا ـ عن نمط زواج متعارف عليه من الأوجه التالية: الوجه الطبقي (التزاوج ضمن الطبقة الاجتماعية الواحدة) الوجه الطائفي (**ضمن الطائفة الواحدة**) الوجه الإقليمي (**التزاوج ضمن الإقليم الجغرافي الواحد**) الوجه المختلط (**التزاوج بين الطوائف**) ووجه عاطفي (**زواج الخطيفة**).

ولجهة تمثلها ـ ثانيًا ـ مظاهر القيم السائدة من سلطة وتبعية وميثاق من التفاعلات المستمرة بين أعضائها خاصة في مسائل ذات أهمية اجتماعية، حيث يعمل الجميع من أهل وأقارب على ترتيب المناسبات، ففي مشروع الزواج

يتطوع الجميع لإبداء الاستعداد بالترتيبات وهنا ينشط دور الخطّابات (matchmaker) حيث البحث يجري بناءً على مواصفات ومعايير مناسبة بحدها المقبول وليس بناءً على انجذاب عاطفي. وهذا يعرف بالزواج المرتب (arranged marriage) حيث في حالة هذا الزواج لا يبحث المقبل عليه عن فتاة ليحبّها وإنما نزولًا عند رغبة الأهل لابنهم كي يتزوج، مثل هذه الزواج قد يبدو غريبًا بالنسبة للغربيين الذين يتوقعون أن يجد كل شخص شريكه عبر نظرة الحب من أول لقاء ليبدآن معًا بناء الأحلام والآمال للمستقبل وليس أن يتولى أحد غيره. مثل هذا الارتباط (المرتب) وإن كان مستغربًا إلا أنه معروفًا تاريخيًا ولمّا يزل لدى ثقافات ومجتمعات عديدة وأخصها المجتمعات التقليدية حيث ترتيب الزواج للأبناء هو بمثابة العرف والتقليد الاجتماعي يعمد إليه الأهل كوسيلة حماية من الانحراف ولإعطاء الابن موقعًا اجتماعيًا ولتحميله المسوؤلية باكرًا.. ولا نغالي القول أن مثل «الترتيب» لازال قائمًا مع انحسار العلاقات الاجتماعية وانشغال الشباب بالدراسة والعمل، وقلما يلتفتون إلى متطلباتهم العاطفية فتلعب «المدبّرات» دورًا (وقد استحدث للغاية مكاتب تهتم بتأمين شريك الحياة) وفي سياق مواز يلاحظ لدى جيل اليوم حرية في اختيار شريك حياته بشكل مغاير عما كان يفعل الآباء والأجداد، فقد يبدأ أحدهم حياته العاطفية من على مقاعد الدراسة بمواعدة زميلته على بناء أسرة قبل أن يرتبطان فعليًا عبر خطوبة وزواج، وهناك ما يمكن تسميته بالزواج المساعد (assisted marriage)، حيث لا يتدخل الأهل بشكل ضاغط على الأبناء إنما يهيأون لهم رغبة التقرب والتعرف على فتيات من أناس مقرّبين ثم يتركون لهم حرية الالتقاء والمواعدة، وعندما تتقارب وجهات النظر يبلغون العائلتين لإتمام مراسم الزواج وفق التقاليد المتعارف عليها.

وحول واقع الزواج في العالم العربي تنبئ دراسات حقلية عن تبدلات في النظرة إليه على نحو ما يحدث في بلدين عربيين:

* فقد بينت دراسة قامت بها وزارة الشؤون الاجتماعية اللبنانية، أن معدل سن الزواج في بيروت هو 31 سنة للفتاة و35 سنة للشاب، وأظهرت أن أهم سبب لارتفاع معدل سن الزواج لدى المرأة والرجل على حد سواء هو

الضائقة الاقتصادية التي أثرت من خلال أمرين: فمن جهة دفع الضغط المادي وما يصاحبه من غلاء إيجارات المنازل وارتفاع الضرائب وندرة فرص العمل لتأخير سن الزواج، ومن جهة ثانية فإن هجرة الشبان خففت من حظوظ المرأة في الزواج، حتى أصبح عدد الإناث المقيمات مضاعفًا لعدد الذكور المقيمين، مما يتيح الفرصة أمام هذه الفئة من الذكور وبحسب دراسة أجراها مركز البحوث العلمية في بيروت، للارتباط بالفتيات العاملات فحسب. إذ بحسب الدراسة أعرب 87% من الشبان المقيمين الذين شملهم الاستطلاع عن رغبتهم في الزواج من امرأة عاملة، وأكد 77% أن المرأة العاملة ملزمة بمساعدة زوجها، بينما رأى 33% أن عمل المرأة يضمن استقلاليتها، وحسب دراسة صادرة عن وزارة المغتربين فإن 80% من الشباب اللبناني المغترب يعود إلى لبنان ليتزوج، إنما بعد مرور سنوات على سفره وبعد التمكن من تأمين متطلبات الزواج، وهذا ما يفسر أيضًا تأخر سن الزواج لدى الشباب.

* أما في تونس فقد أظهرت دراسة ميدانية أن الحديث عن الجنس في المجتمع التونسي لم يعد من المحرمات، وأن ما بين 50 و60% من الشبان التونسيين مارسوا الجنس قبل الزواج. ووفقًا لهذه الدراسة التي أعدها الديوان الوطني التونسي للأسرة والعمران البشري (مؤسسة حكومية)، فإن ما بين 12 و18% من الفتيات التونسيات مارسن الجنس قبل الزواج، واعتبرت الدراسة، التي تناولت بالتحليل مدى وعي الشباب غير المتزوجين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 18 و29 عامًا بالممارسة الجنسية وأساليب الوقاية من الأمراض المنقولة جنسيًا، إن الحديث عن الجنس في المجتمع التونسي لم يعد ممنوعًا، لكن الحديث عن الممارسة الجنسية في حد ذاتها ما يزال ممنوعًا اجتماعيًا ودينيًا. ولفتت إلى أن 10% من الفتيات التونسيات يرفضن ممارسة الجنس قبل الزواج، بينما توافق على ذلك 9%، بينما يوافق على ذلك 40% من الشبان التونسيين[1].

مع أن مجتمعاتنا تنتهج المفهوم التقليدي للزواج حيث يفترض الاقتران

(1) «في تونس الجنس ليست من المحرمات» عن الموقع الإلكتروني: www. rmw. nl/ arabic/ article/ تموز 2009 .

بشريك واحد وفقًا للثقافة الاجتماعية السائدة، يبدو أن مفاهيم جديدة تقتحم عالم الأسرة والعلاقات الزوجية وأنماط العائلة، ولعل واحدة من أبرز هذه التبدلات هي تضارب المصالح بين العائلة والعمل والحب وحرية السعي إلى تحقيق الأهداف الشخصية، ويبدو الإحساس أكثر حدة في العلاقات الشخصية عندما يسعى الطرفان ـ الرجل والمرأة ـ إلى متابعة مسار حياتهما المهنية في سوق العمل بعد الزواج وبعد الإنجاب. . ولم يعد التفاوض بينهما يدور على مسائل الحب والأطفال والمهمات الزوجية أو المنزلية بل أصبحت في جوهرها تشمل قضايا أخرى مثل العمل والأمور المهنية والتحديات التي ستواجههما. حتى تولد عن ذلك تراجع في هيمنة العائلة النواتية التقليدية وبروز أشكال أخرى بديلة من الحياة الزوجية والعائلية والعلاقات الجنسية.

2) جماعة القرابة (TO WHOM ARE WE RELATED?)

يفترض الحديث عن العائلة تمييزه عن مفهوم آخرمتعلق به وهو القرابة، التي تعني علاقة اجتماعية تعتمد على الروابط الدموية الحقيقية أو المصطنعة، وليس بالضرورة هي الصلات المتحدرة من نسب واحد إنما المتأتية عبر علاقة زواج أيضًا، فعلاقة القرابة من نسل واحد دموية بينما علاقة القرابة بالزواج علاقة مصاهرة، من هنا يمكن أن نميز في القرابة لجهة انحدار الأبناء من ذويهم في تصنيفين:

- ✓ **القرابة الأولية وهي العلاقة الدموية والاجتماعية التي تربط الآباء بالأبناء** والأبناء بمن يليهم عبر انحدار النسب الذكوري، وعليه يُعتبر الولد المتحدر من هذه القرابة هو النسب الأبوي.
- ✓ **القرابة الثانوية وهي العلاقة الدموية ـ الاجتماعية التي تربط الفرد بالخال** أو ابنة الأخت وهنا يكون ابن المتحدر من هذه القرابة ينسب إلى النسب الأمومي.

وفي حال كان الابن متحدر من نسب أب وأم في آن واحد (نفس الجذر) فيُسمّى بالنسب المشترك. ورغم أنه في بعض الأحوال يُفضّل دائمًا الزواج من خارج النسب القرابي نجد في المقابل أن هناك من يشدّد على

ضرورته ضمن نسب العائلة الواحدة (ابن العم لابنة العم) وفي هذه الحالة لا يمكن التمييز عندها بين القرابة والمصاهرة لأن الأقارب أصبحوا أصهارًا والأصهار يعتبرون أقارب بعد أجيال.

ومسألة القرابة بعلائقيتها المتشعبة شغلت حيزًا في تفكير الباحثين وعلماء الدّين منذ أقدم العصور عبر أحكام الميراث والوصاية وحصر نسب الأبناء وتفصيلات مسائل التزاوج (من تكون حليله ومن لا تكون) وذلك انسجامًا مع الموروث الثقافي القائم على تعاليم الدين ومقتضيات العُرف، فالكنسية الكاثوليكية مثلًا تمنع زواج ابن العم بابنة عمه، كذلك في الإسلام هناك تفضيلٌ في أن يبتعد الرجل في الزواج عن نسبه المقرّب نقاءً للنسل وسلامةً للوِلدْ، كذلك يحرم المسلمون زواج «الإخوة بالرضاعة»[1].

وقد لوحظ في بعض القبائل أن هناك عُرف يمنع الرجال من الزواج بنسائها، وفي مجتمعات غربية (كندا/ أمريكا) هناك تقليدٌ بأن الولد لا يتزوج ابنة عمه فهي بالنسبة له كأخت وأي اقتران بها يعني سفاح قربى.

1.2: مظاهر القرابة:

لا يمكن فهم علاقات القرابة انطلاقًا من العائلة الممتدة التي قد تشمل بالإضافة إلى الزوجين والأولاد والأجداد والأشقاء والشقيقات وأزواجهن (الصهر) وحسب، وإنما يُمكن النظر إليها من زواية اشتمالها منظومة علاقات فاعلة ومؤثرة أكثر اتساعًا وتشابكًا نجدها في المسميات التالية:

1 ـ **القبيلة**: (tribe) وهي وحدة اجتماعية متماسكة تتكوّن من مجموعة أفراد تعيش على بقعة جغرافية معينة، تتمتع بدرجة من الاستقلال السياسي، يتكلم أفرادها لغة واحدة تمتاز بلهجة معينة تختلف عن لهجات القبائل الأخرى التي تتكلم اللغة نفسها، لهم عادات وتقاليد خاصة ونظام اجتماعي مغلق.

(1) في العصر الجاهلي كان الشاب العربي يقترن عادةً بابنة عمه حتى سمي والد الزوج أو الزوجة بالعم، وسميت الزوجة بابنة العم ولم يخرج المتأخرون عن هذه العادة لدرجة بات الاقتران مرادفًا للعمومة ولو لم يكن بين المقترنين أية رابطة فعلية والزوجة بدورها ابنة عم مجازًا ولو كانت من قربة بعيدة.

2 ـ **العشيرة**: (clan) مجموعة من الأفراد الذين يعتقدون أنهم ينتسبون إلى سلالة واحدة أبًا عن جد لعدة أجيال وينحدرون من أصل واحد، يعتبر هؤلاء أنفسهم مثلما يعتبرهم الآخرون وحدة اجتماعية ذات هوية متميزة، تشترك في منظومة واحدة ومتقاربة من القيم والعادات والتقاليد وتقيم فروعها في أنحاء جغرافية متقاربة. ما يربط بين أعضاء العشيرة علاقات والتزامات اقتصادية واجتماعية متبادلة.

3 ـ **الفخذ**: أي ما يقال له في العاميّة الجب، في سياق الأنتروبولوجيا البدوية هو وحدة قرابية تنتسب إلى أحد الأجداد الذي يقع على خط النسب العشائري البعيد يمتد على ثلاثة أجيال وحتى خمسة أجيال، يُعتبر الجد القديم هو نقطة انطلاق الفخذ الذي ستتفرع منه عدة أجباب لاحقًا، وميزة الأفخاذ/ الأجباب أنها تتحرك كوحدة مقربة (عصبية) عندما يطال أحد أفرادها مكروهًا أو يطلب إغاثة أو حماية ودعم، وللأفخاذ شعائر طقوسية خاصة ومناصب دينية وسياسية معينة وعادات اجتماعية قاسية (ظاهرة الثأر).

4 ـ **الطائفة**: وهي الملة أو الجماعة الدينية التي تتوافق على غايات ووظائف دينية ودنيوية محددة، الغاية من وجودها أن تخدم الأتباع وصهرهم ضمن بوتقة روحية واحدة، في الطائفة المسيحية الجميع «أبناء الكنيسة»، وعند المسلمين هناك أخوّة إيمان «إنما المؤمنون إخوة»[1].

في كلا الجماعتين يلعب الدين دورًا جامعًا وضامنًا ويرسم طريقة حياة الإنسان منذ ولادته وحتى مماته، فالمسيحي لا يعتبر مسيحيًا إن لم يُعمّد، والزواج لا يستقيم إن لم يتم وفق مراسم كنسية، وكذلك الحال عند المسلمين هناك أركان الإسلام الخمسة كشرط في الدخول إلى جماعة المسلمين.

(1) في دراسة ميدانية تحت عنوان الإسلام اليومي: الطقوس والممارسات الدينية عند المغاربة، (2007) ظهر أن أقرب الناس للمستجوبين هم أولئك الذين تجمعهم الرابطة الدينية حيث طلب منهم تحديد أي الناس أقرب لهم من ثلاثة خيارات: المسلم الأفغاني أو اليهودي المغربي أوالمسيحي الفلسطيني، فعبر ما مجموعه 67% بأنهم أقرب إلى المسلم الأفغاني، بينما لم يحصل مواطنة اليهودي المغربي إلا على نسبة 13% عن مجلة إضافات/ العدد الثامن/ 2009/ بيروت).

2.2: هل لا زال السياق القرابي فاعلًا ناشطًا وموجودًا؟

عندما تجالس أحد أقربائك ممن سبقك بالعمر المديد سرعان ما يحدّثك عن نسله وحسبه ونسبه: الأجداد القدامى/ الأعمام/ الآباء ثم أبناؤهم وغيرهم من ينتمون إليهم بالقُربة، في الواقع لا يتحدث هذا الشخص المسن عن تاريخ آبائه أو «شجرة العائلة». بقدر ما يقصد من ذلك إحياء الإرث العائلي المتوارث منذ مئات السنين، إنه يُحيي أصل العائلة عبر التذكير بتلك الشبكة من الأفراد الذين يتواصلون اليوم برابطة الدم، وهذه الشبكة سواءً المتوغلة عمقًا في التاريخ نحو الأجداد أو الممتدة أفقيًا عبر الأقارب هي ما تعرف بـ kinship، ومع أن هذا المفهوم هو مجرد مصطلح اجتماعي أكثر مما يُشير إلى علاقة بيولوجية، إلا أنه يختلف عن مفهوم العائلة ببعض معانيه، فالعائلة وحدة اجتماعية مصغّرة محددة في الزمان والمكان والأفراد، بينما جماعة القرابة ممتدة، متشعبة غير مضبوطة الأعضاء لا في التاريخ ولا في الجغرافيا، كونها تشمل جميع الأنسباء قديمًا وحديثًا سواءً كانوا من الأحياء أو الأموات وفي الوطن أو في المهجر.

وتتجلى جماعة القرابة بوضوح عند المناسبات الاجتماعية الخاصة فيما تفرضه على عصبتها من التزامات وواجبات تجاه ممن ينتمي إلى شجرة العائلة المعروفين على الأقل، فأنت تجاه أقربائك بلحظة ما مضطر للمشاركة بفرح، تُولي الاهتمام بمصاب، معنيّ بمساعدة من تربطك به صلة قربى بمال أو بخدمة.

وقد لاحظ الباحث الأنثروبولوجي (GEORGE MURDOCK) حضورها الفاعل في مختلف المجتمعات وبأن هناك حوالي 64% من الجماعات البشرية تقدّر عامل القرابة لجهة الأب (patrilineal descent) الذي يظهر بشكل واضح من خلال مسألة المواريث حيث تتولى المحاكم الشرعية والمدنيّة غالبًا توزيع الميراث على الورثة الذكور ذات العلاقة بالأب كجهة أولى، وبالمقابل هناك مجتمعات يعنيها أكثر العلاقة القرابية المتوارثة والممتدة من خلال الأم ونسبها (matrilineal descent).

وفي هذا االسياق يلاحظ أنه في بعض المجتمعات البدوية والصحراوية والمحافظة على العرق والنسب، لازالت القرابة حاضرة ومأخوذ بها إلى حد كبير، إلا أن هذا المفهوم يبدو هو الآخر ـ كغيره ـ قد تَعَصْرَن ولحقه تحولات على غرار ما حدث مع العائلة النواة و الممتدة، فبات يطلق اليوم مثلًا على من ينتمون إلى نسب واحد لقب معروف أو كنية خاصة بهم يشتهرون بها وهو ما يعرف بالآل (DISTINCT IDENTITY) الذي يعني مجموعة من الأشخاص يعتقدون أنفسهم متحدرين من أب وأم واحدة على عدة أجيال متعاقبة وينظرون إلى أنفسهم وينظر إليهم الآخرون على أنهم ذوي هوية اسمية محددة النسب. ومما يميز جماعة القرابة أنها:

☆ تقوم بالتزامات مادية فيما بينها.
☆ ينشأون في مكان واحد ثم ينتشرون مع بقائهم على اتصال حميمي.
☆ قد تكون صغيرة العدد أو كبيرة.
☆ لها تأثير على قرارات أفرادها وهذا ما يعرف بالشورى.
☆ يتولى زعامتها شيخ، يصبح وجيهًا في جماعته وإليه يعود القرار الفصل.
☆ وجود تشابه كبير في أسماء أبنائها المتداولة فالرجل يُسميّ ابنه حكمًا باسم أبيه وأجداده وتبقى التسمية ثابتة مع الاسم كقولهم: سعد بن طراف بن سعد بن .....إلخ.

وتبرز أهمية جماعة القرابة من خلال اعتبارها خط وسط بين المجتمع الأكبر وجماعاته الصغيرة، في المجتمع هناك أسر معينة، بينما في جماعات القرابة هناك تفرّق على أكثر من مجتمع. ومن جدلية هذه العلاقة والوظائف التي تقوم بها لصالحها أولًا ولصالح المكان الجغرافي الذي تقطن فيه تاليًا، تتحدد خصائصها البنيوية الاجتماعية المفترضة. لكن السؤال الأهم الذي يطرح نفسه في هذا المقام:

*** هل لا زالت جماعة القربة مثالًا حيويًا على حميمية التواصل بين الأفراد في الملمات أم تضاءل وهجها حتى انتهت القرابة عند حدود لفظة «UNCLE»؟.**

* لماذا يبرز اليوم ما يسمى بالراوبط العائلية تحت أسماء متعددة مثل: جامعة آل عيتاني وأنسبائهم في بيروت، رابطة آل طربيه في الوطن والمهجر، تجمّع عائلات أبوخاطر في لبنان والعالم، اتحاد أبناء بيت مشهور. . . .الخ، هل المقصود منها إعادة إحياء القرابة والنسب عبر العودة إلى جمع الأسر المنتسبة إلى أصل واحد بعد تشتتها أم لأمر آخر؟.

3. جماعة الأقلية (MINORITY GROUP)

تسمى هذه الجماعة بالأقلية لأنها أقل عددًا عن التعداد العام لمجموع السكان المتواجد ضمنه، إلا أن مؤشر العدد لا يحدد بالضرورة ماهية الأقلية، بل القوة الاقتصادية أو النفوذ السياسي هو ما يأخذ به علماء الاجتماع عند دراسة الأقليات وذلك بالسؤال عن مدى تمتّع الأقلية بالنفوذ أو القوة؟ كذلك يمكن النظر إلى جماعة الأقلية على أنها جماعة كبيرة تمتد على أرجاء بلد معين لها من السيطرة والنفوذ على أفرادها بشكل يجعل هؤلاء الأفراد مترابطون ومتماسكون. .ومما يميز الأقلية حيث تتواجد:

1 . **اللامساواة في المعاملة**: والمقصود بذلك أن أبناء الأقليّات يشعرون دائمًا بأنهم مضطهدون من أبناء البلد المتواجدين ضمنه، فلا يُعاملون بالمثل كسائرالمواطنين المحليين، فالأميركي مثلًا يرفض أن يؤجّر منزله لرجل أفريقي أو عربي، بينما يرغب فعل ذلك مع مواطنيه أو مع أوروبيين ويهود، مثل هذه التفرقة الاجتماعية قد تخلق نوعًا من التحامل والتميز والانفصال والتطرّف.

2 . **وحدة الثقافة**، يتميز أبناء الأقلية عن غيرهم في حفاظهم على ثقافة الأصل حتى تُصبح هوّيتهم أينما حلّوا، لدرجة أصبح من المتعارف عليه أن ننسب شخص معين إلى أقلية بناءً على سمات ثقافية يتمتع بها. . .السريلانكيون في لبنان هم خدم، الأرمن أصحاب حرف وصناعات.

3 . **وراثة النسب**، ومعنى ذلك أنه ليس لدى أبناء الأقليات الخيار بأن ينضموا إليها تطوّعًا وإنما جميع أبنائها مولودون من نسبها، إنهم ذات سلالة ونسب موروث.

4 . **تضامن وتآزر**، لدى جماعة الأقلية شعور وحس مشترك بالتضامن، ويظهر مثل هذا الشعور التضامني عندما تشعرالأقلية بأنها مهددة، مستهدفة، مضطهدة. .حيث يتكاتف الجميع ضد من يناوؤهم من الآخرين.

5 . **التزاوج الداخلي**، ثمة عرف ثابت في وسط الأقليات وهو الرغبة في اقتران أبنائها من بعضهم البعض، ويشجّعون عليه كي تبقى الأقلية في كيانها وتحافظ على هويتها الخاصة، لهذا يستاء الأقليون عندما يتزوج واحدهم من خارج ملته. (**ليس سهلًا أن تدخل وسط أقلية بهدف زواج**). . فهو أشبه بالأمر المستهجن خاصة إذا كانت الأقلية في مجتمع أو بلد يُنظر إليها دائمًا على أن أبنائها من الدرجة الثانية.

1.3 ـ شبيبة الضواحي:

يُنظر إلى هذه الجماعة على أنها نوعٌ من التكوين الاجتماعي وغالبًا ما يكون جيلي ومديني، إنهم شباب الأحياء الأشد شكيمة وعنفًا[1]. يميل هؤلاء الشباب إلى أن يُصبحوا أكثر تجانسًا على صعيد المعاش اليومي ومع الوقت يتمأسسون كغيتو اجتماعي أو ديني أو عرقي، له ثقافته الفرعية الخاصة، كما هو الحال مع الشباب المغاربة المتحدرون من مناطق محرومة اجتماعيًا في بلدانهم يقطنون في ضواحي مدن فرنسية/ ضاحية ليون تحديداً، فعبر لغتهم ـ العامية الفرنسية ـ وملابسهم (قبعات البايسبول وقمصان لاكوست وأحذية نايكي الرياضية) وموسيقاهم (الهيب الهوب والراب) وطعامهم (fast food) يصبحون أشبه بجماعة شبابية جديدة لا هي بالمغربية ولا الفرنسية الحديثة، إنهم أقرب إلى السود الأمريكيين، والدليل على أنهم أبعد ما يكون عن ثقافتهم الأصيلة ـ وتحديدًا الإسلامية ـ هو تربيتهم كلاب البيتبول في الشقق، مع أن الإسلام يرفض تربية الكلاب في البيوت وقد يعمدون إلى إثارة شغب وإقلاق وإزعاج والتهور في أنشطة غير شرعية، إذن هنا جماعة تعمل على إعادة تكوين

(1) لماذا الأكثر عنفًا؟ لأن بعض التقارير عن الشرطة تبين أن معظم الموقوفين يتحدرون من أحياء ضاحيوية.

ذاتها وفق منطق تمرّدي ـ عنفي، على شاكلة النضال الثوري لليساريين، ويمكن ملاحظة ذلك مع ما يحدث عند كل أزمة تندلع في الشرق الأوسط يتحرك هؤلاء في أعمال عنف (حرب الخليج الثانية 1991/ والانتفاضة الفلسطينية 2000، والحملة على أفغانستان 2001) حيث قام هؤلاء الشبيبة باعتداءات في بعض المدن الفرنسية على دور العبادة والمدارس اليهودية..

يمكن فهم جماعية (collective)الشباب الضاحيوي، على أنها ظاهرة نفسية دفينة تتبلور من خلال حالات الوعي الجماعي في الحياة اليومية، فالذين ينتمون إلى منطقة معينة نجدهم ينجذبون إلى بعضم البعض، والذين ينتمون إلى جيل واحد نلاحظ أنهم يتشاطرون المفاهيم نفسها والوعي الديني عينه والمواقف الوطنية المنظمة. الجماعة الاجتماعية هي بمثابة وعي جماعي يغرف الجميع منه تصوراتهم وأفكارهم ومسالكهم[1]. بعض الباحثين دلل على هذه الجماعية من خلال ما أسماه طبيعة الانتماء وطبيعة العلاقات القائمة داخلها فأصبح لها تسميات أخرى مثل:

* **الجماعة من حيث العلاقات**، ما هي طبيعة العلاقة ضمن النسق الاجتماعي، هل هي قوية/ وثيجة لدرجة الاستغراق وهذا ما يعرف «بالجماعة المستغرقة» كما هو الحال مع الطوائف أوالعشائرية حيث الشعور بالانتماء يغلب على المصالح وأفرادها متضامنين ومتضمنين في الجماعة الكبرى. أم أن العلاقات واهية مما يجعل الأفراد ينصرفون عن الجماعة الأصل ليشتوا أفرادًا وفرق على نسيج آخر من العلاقات.

* **الجماعة المرجعية** التي تعني تجمع لأشخاص يتفاعلون مع بعضهم

(1) أطلق شباب الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت على وسائل النقل المشترك صاحبة الرقم 4 التي تسلك الطريق من الضاحية باتجاه شارع الحمرا بوسط العاصمة، تعبير «اللواء الرابع»، لأنها هي الفانات نفسها التي استعملت في نقل الحشود الغاضبة من الضاحية إلى ميادين التراشق الطائفي والمناطقي التي تتالت في السنوات الأخيرة، فدرجت التسمية ودرج معها منطق ساد عقول الشباب الضاحيوي: إن رأسمال أي منطقة لكي تسقط هو فانان من اللواء الرابع... عن مقالة: من الضاحية إلى الحمرا... حكاية طريق، (جريدة حبر لبناني، العدد 1، كانون الأول 2009).

البعض في سياق معين أكثر مما يحدث بينهم في أي سياق آخر، وبهذا المعنى أشار علم النفس الاجتماعي عن هذه الجماعة على أنها «صورة عقلية موحدة» تنطبق على مجموعة من الأشخاص يشغلون وضعًا معينًا في سياق اجتماعي.

4 ـ السلوك الجموعي collective behavior.

يتناول علم الاجتماع الإعلامي السلوك الجماعي لما له من صلة بكثير من التجمعات، هذا السلوك والذي يسمى أيضًا بالسلوك الشمولي، يمكن فهمه من خلال درس بعض الحالات مثل الحشد والرعاع والهلع والهوس والرقص المسعور والتدافع والرأي العام والصرعات والموضة والحركات الاجتماعية والثورات والحركات الإصلاحية.

1.4 ـ **الحشد**، يتسم سلوكه بالاندفاع والثورية بدل التقيد بالقوانين المرعية، هو بمثابة جماعة لا ثقافية ولا أخلاقية، لأنه تنقصه ملامح الجماعات المنظمة من هيكلية في الأدوارالمقرة، قيادة معترف بها ومجموعة أعراف وقوانين ووعي ذاتي للهوية المميزة. .لهذا يصبح من السهل إدراك الأسباب التي تجعل الأعمال الصادرة عن الحشد مستهجنة ومنفرة وأحيانًا مروعة، وبطبيعة الحال هو مختلف عن الجمهور باعتبار الأخير جماعة من الناس يشترك أفراده في لقاء عفوي حول إحدى القضايا الهامة وغالبًا ما ينتهي هذا اللقاء إلى نقاش وإلى قرارات جماعية وآراء مشتركة، ويتقارب الحشد في طبيعته مع مفهوم الكتلة باعتبار أن أفرادها منفصلون ومعزولون ومجهولون، والكتلة مثل الحشد لا تنظيم يضبطها ولا قواعد تسيّرها ولا طقوس تنظمها ولا قيادة تتزعمها.

2.4 ـ **الرعاع**: هم جماعة من الناس يقومون بأعمال عنف وتخريب، تعبر عن استياء معمم أكثر مما تعبر عن أهداف محددة.

3.4 ـ **الهلع**: ويحدث في مواجهة المخاطر المفاجئة والحالات الأمنية الطارئة التي تهدد السلامة، يرتبط الهلع غالبًا بظاهرة العدوى الاجتماعية التي يعزز من انتشارها وجود آخرين يعملون على حالة من الهياج

أو حدة الرعب.(كحالة الإعلان عن قدوم إعصار أو كارثة طبيعية ستحدث، أو نتيجة لإعلان وباء خطير، كما هو الحال مع مرض H1N1 الذي أعلنته منظمة الصحة العالمية وباءً عالميًا استدعى معه حالة استنفار طارئة لطرق الحماية والمعالجة) ويتوقف علماء الاجتماع عند ظواهر الهلع كيف أنها تُحدث ردات فعل انفعالية مستنفرة تبرز في هيئة استنكار/ رفض/ احتجاج. خاصة بعدما يتناهى إلى سمع الناس أخبار عن حوادث تقنية مميتة (كتحطم طائرة أو قطار/ تسرّب نووي/ تسمم كيميائي/ . . .).

4.4 ـ **الهوس**: هو تكتل بشري مؤقت (ظرفي) يظهر نتيجة اهتمام معين، فمتفرجي كرة السلة ومشجعي الرالیات ومثيري الهرج كلها أمثلة عن حالة الهوس الجماهيري. وكثيرًا ما تلعب التلفزة والصحافة والأقاويل والخبريات المتداولة بما فيها الإشاعات دورًا في تعزيز حالة «الهوس»، حيث يأتي التصرف عندها كرد فعل على اعتقاد معمم، والمثال على حالة الهوس الجماهيري ما ترافق مع مباراة الترشح لكأس العالم في كرة القدم بين مصر والجزائر (2009) حيث بلغ التنافس أشدّه حتى وصل إلى حالة غليان شعبي في الشارعين المصري والجزائري وأكثر من ذلك أحدث توترًا في العلاقات الدبلوماسية بين البلدين بعدما أخذ الإعلام ينقل أخبارًا عن حالات الاستفزاز والتعنيف والتهديد والاعتداء التي طالت مواطنين من كلا الدولتين أثناء المباراة وبعدها.

5.4 ـ **الصرعة والموضة**، الأولى عبارة عن امتثال مجموعة من الناس لمنتج استهلاكي ظهر فجأة ليلاقي بدوره هوى في نفوس بعضهم، وقد يظهر من خلال طريقة ثياب/ موسيقى رائجة/ قصة شعر. . .إلخ، بينما الموضة قد تكون أكثر تقبّلًا من الصرعة لأنها تظهر كأسلوب حياة جديد أو متجدد مع معطيات العصر. في الغالب عندما تذكر كلمة موضة يربطها الناس بالثياب وطريقة ارتدائها والدارج من الألوان أو التصاميم، لكن واقع الموضة تدخل في سمات ثقافية واجتماعية أخرى: السيارات، الرياضة، الدراما، الفنون، الصحة، الأثاث المنزلي، اختيار الحيوانات الأليفة وحتى إعادة تشكيل

الجسد/ عمليات التجميل والترشيق باتت خاضعة لمسائل الموضة، وأصبحت تحدد وفق «الذوق الدارج».

وقد اهتم باحثو علم الاجتماع بهذه الظاهرة ومآلها فوجدوا أن الصرعة غالبًا ما تكون نمط حياة مغاير لثقافة معاشة وسائدة، سريعة الزوال، تسعى إلى البحث عن جديد بهدف الجديد، كما أنها تصبح المقياس الذي يفرّق به الناس بين ما هو رمز ثقافي أصيل وما هو طارئ ومؤقّت لزمن محدد، لهذا يقال بأن هناك عادات وتقاليد (أصول) وهناك موضة دارجة اليوم (صرعة)، واحدة ثابتة على الدوام كمحور ثقافي، وأخرى متغيرة كسمات مستحدثة تظهر اليوم وتستمر لحين ظهور سمات جديدة تحل محلها، الأولى (التقاليد) مرتبطة بالإرث الثقافي ـ الديني المتوارث، الثانية (الموضة والصرعات) مرتبطة بالذوق الشخصي.

تظهر الصرعة كشيء ترفيهي يستهوي جيل الشباب فيمارسه كحالة مزاج، بينما الموضة غالبًا ما تعطي الانطباع بأنها تلازم أصحاب الثروة وذوي المكانة الاجتماعية (الفنانين/ المشاهير/ رجال الأعمال) كما يمكن اعتبارها تعبير عن الآراء والاتجاهات والفنون والتكنولوجيا وغيرها من المعنويات الثقافية التي تتبناها جماعة أو طبقة في المجتمع لفترة من الزمن، ثم تنخفض بعد ذلك ليحل محلها موضة أخرى جديدة، وفي مقاربة أولية لموضوع الموضة وجماعتها، تبين أنها أنماط سلوكية انتقالية تعكس نظامًا طبقيًا مرنًا يمكن تناقلها من طبقة لأخرى، وأن الذي يتبنى الموضات بدايةً هم الأغنياء ثم تنتقل بعد ذلك إلى أفراد الطبقة الوسطى فأفراد الطبقة الفقيرة، باعتبار أن النخبة هي التي تهتم بالمظهر وبمسائل التأنق في وقت يكون أبناء الطبقات الفقيرة مهتمين بأمور أكثر حاجة. ويذهب البعض إلى الاعتقاد بأن دافع التفرّد يُعتبر من الدوافع الأساسية في نظام الموضة، وآخرون يعتبرونها من وحي التماثل مع الآخر[1].

(1) تبين بالدراسة أنه يمكننا من خلال ثيابنا تمرير رسالة عن شخصيتنا بعيدًا عن التماثل مع الآخرين وأننا أيضًا نستعمل الثياب لنعطي صورة مميزة عن ذاتنا ولكن ما نجهله هو أن صورة الذات التي كوناها عن أنفسنا ليست سوى انعكاسًا لتفكير الآخر بمعنى أننا ننظر إلى أنفسنا من خلال أعين الآخرين، وبما أن الثياب هي جزء من صورة الذات ومن مظهرها الخارجي =

ينشأ السلوك الجماعي عندما تلتقي خطوط العمل الفردي استجابة لنزعات واهتمامات عدد كبير من الأفراد المعزولين حول نقطة مشتركة وجديرة بالاهتمام ولا تقع ضمن دائرة اختياراتهم الشخصية بالضرورة. . ويلصق بهذا السلوك غالبًا سمة السلبية لسبب أن أقبح الجرائم في التاريخ كالحروب والتصفيات العنصرية وموجات الإبادة والعنف والكراهية العرقية لم يرتكبها أفراد بل جماعات من الناس تخلى أفرادها عن إنسانيتهم واشتركوا بأعمال لاعقلانية ولاواعية. لهذا يرى علم الاجتماع عند الحديث عن «هذه الأنواع من التجمعات» بأنه ليس من السهل تحديد مسببات التجمعات لأن لكل تجمع أبعاده ودلالته، فبطبيعة التجمع الغاضب والهائج أو المشجع أو المهووس إزاء حدث معين، تختلف تمامًا عن ذاك التجمع الذي ينادي إلى احتفال ديني لمناسبة إحياء ذكرى، ويختلف كذلك عن الحشود التي اجتمعت عفويًا لوداع زعيم إلى مثواه الأخير. لهذا السبب يمكن القول بأن الحشود أكثر من لقاء عاطفي وأكثر منه إيحائي وليس بالضرورة أن يكون له بعدًا تدميريًا.

كذلك تجدر الإشارة بأن في هذه الحالات وخاصة في حالتي الهوس والهلع لا يعي المرء ما يقوم به بل يكون في حالة لاشعورية ولاواعية تدفعه إلى التصرف بسلوك هستيري. وقد لاحظ الباحثون بالدراسة والمتابعات الميدانية كيف أن الناس تندفع بشكل ثائر حالما يدركون بأن هناك حريق هائل مثلًا في المكان الذي يتواجدون فيه (مسرح/ مركز تجاري/ . .) وكيف يدفعهم الذعر إلى التدافع وحتى إلى القفز من على الشرفات، وكأن مثل هذا التصرف التلقائي هو بمثابة رد فعل غريزي إزاء حالة الخوف العارمة تدفع بأحدهم القيام به وفق غريزة «الحفاظ على البقاء»[1].

= لذا فإننا نعمل لكي تلقى قبولًا عند الآخرين. (رانية سعد/ الدوافع والدلالات المتعلقة بموضة الثياب/ مجلة إضافات/ صيف وخريف 2008).

(1) (الفرق بين الهلع والهوس: الهلع هو فرار من حدث ما، بينما الهوس هو اندفاع لشيء ما).

5) الحشود الجماهيرية في الاحتجاجات:

إذا كانت بعض التعريفات ترتكز على القول بخاصية العدد الكبير الذي يتميز به «حشد التظاهر» لما لهذا الاعتبار من دور تأسيسي في تحديد معالمه. إلا أن هذا الاعتبار غير كافٍ للتفسير أساسًا وجوهرًا لمعنى التظاهر وأهميته، لأن إذا أردنا التوصل إلى وصف حقيقي للكتلة الجماعية باعتبارها فريقًا ـ أي جزءًا مساهمًا وفعالًا في عمليات التعبير ـ وجب علينا أن ننظر إليها كجمهور يتألف من أناس يشترك أفراده في ظهور/ لقاء/ نقاش عفوي حول إحدى القضايا العامة من شعور مشترك، لينتهوا إلى قرارات جماعية وآراء مشتركة. لهذا فإن ألفًا أو مائة ألف يتواجدون بالصدفة في ساحة أو محطة قطار أو ينتظرون الدخول إلى سنتر تجاري بهدف الاستفادة من أسعاره المخفضة لا معنى لتجمعهم وعددهم إن لم يكن لديهم توجّهًا واضحًا، في حين أن بضعة مئات ـ على سبيل المقارنة ـ من عناصر متحركة لها هدف وتنطلق وفق خطة مطلبية يمكن اعتبار تحركها ذا جدوى. إن خاصية العدد لا يفرضه سلوك التجمع بقدر ما يفرضه فعل الإيمان بجدوى الاحتشاد/ التظاهر. وهنا يصبح هذا التكتل البشري «الهادف» ممتلكًا ـ وكما يرى الباحث الفرنسي (غوستاف لوبون) في مؤلفه سيكولوجيا الجماهير ـ خصائص جديدة مختلفة جدًا عن خصائص كل فرد يشكّله إذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه، فتتشكل روح جماعية عابرة ومؤقتة لكنها تتمتع بخصائص محددة، لتصبح والحالة هذه ما يمكن تسميته بالجمهور النفسي له كينونته ووحدته العقلية المشتركة. وبناءً على ذلك أيًا تكن نوعية الأفراد الذي يشكلونه، وأيًا يكن نمط حياتهم متشابهًا أو مختلفًا وكذلك اهتماماتهم ومزاجهم أو ذكائهم، فإن مجرد تحولهم إلى جمهور / حشد تظاهري يزودهم ذلك بنوع من الروح الجماعية، وهذه الروح تجعلهم يحسون ويفكرون ويتحركون بطريقة مختلفة تمامًا عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولًا. وهذا ما أشار إليه الباحث النفسي (CATTELL) في تحليله لديناميات التركيب، عندما رأى أن كل فرد يرتبط بالجماعة بهدف إرضاء بعض حاجاته

النفسية يجلب معه للجماعة درجة من الطاقة، ومجموع الطاقات المتاحة يفعّل النشاط كي تحصل الجماعة على ما تبغيه.

بهذا السياق يمكن النظر إلى الحشود الشعبية فأيًّا كانت هويتهم أو مهنتهم أو جنسهم والمصادفة التي جمعتهم، فإنهم ينصهرون في بوتقة «التركيب» وفي الفاعلية التي تحرك الجماعة ككل مما يجعلها وحدة خاصة. تُنشئ من يمثلها ومن يفسر اتجاهاتها ومن ينطق باسمها، وعندما يتمكن هؤلاء من مس وإثارة عواطف أفراد الجماعة بشكل عميق في التأثير الدعائي، لا يغدو المضمون المستوعب مادة للتفكير وحسب، وإنما مصدرًا للهيجان والاضطراب وقوة دافعة نحو رغبات وطموحات جديدة. ومثل هذه الإثارة الانفعالية جماهيريًا غالبًا ما تشق الطريق نحو واقع الجماعة المرتقب.

إن السلوك الشمولي -كما يسميه هربرت بلومر ـ ينشأ عندما تلتقي خطوط العمل الفردي استجابةً لنزعات واهتمامات عدد كبير من الأفراد المفصولين، المجهولين، المنعزلين، حول نقطة معينة تبدو جديرة بالاهتمام ولا تقع ضمن دائرة اختياراتهم الشخصية. والتقاء اختيارات الناس هو ما يجعل من «ظاهرة التظاهر» مثلًا قوة ذات تأثير، خاصة في الظروف المثيرة التي ترتفع فيها قابلية التأثر بالنداءات الحماسية، ليصبح لدى جمهور التظاهر خصائص مثل: سرعة الانفعال، النزق، انعدام الرأي الشخصي، ظهور الروح النقدية، المبالغة في العواطف والمشاعر، إذ من شأن هذه العوامل أن تعمل على تهييج جماهير متنوعة ومتعددة وتحركها إلى أبعد حد لقول غوستاف لوبون: «لاشيء متعمد أو مدروس لدى الجماهير، فهي تستطيع أن تعيش كل أنواع العواطف وتنتقل من النقيض إلى النقيض بسرعة البرق وذلك تحت تأثير المحرّض السائد في اللحظة التي تعيشها..»[1].

خلاصة:

إلى ما يعود السلوك الجماعي؟ ما هي الدواعي التي تعمل على إيجاده؟

(1) غوستاف لوبون: سيكولوجيا الجماهير، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت. 1991.

ثمة أسباب ترافق السلوك الجماعي وتبعث عليه، ومنها:

- ✓ فقدان الأشكال الاجتماعية، عندما تكون التدابير الاجتماعية السائدة غير مجدية، يجد الأفراد أنفسهم مضطرين للارتجال.
- ✓ المواقف الغامضة إزاء الأمور التي لم يبت بها، تفتح الباب أمام تأويلات وأخذ ورد في شأنها.
- ✓ تغير القيم والمفاهيم، إزاء التغيرات المادية المتسارعة غالبًا ما تكون القيم المعنوية غير قادرة على اللحاق بالتغيرات المستجدة، فيجد الأفراد أنفسهم في ظروف جديدة عليهم، تقود تصرفهم وتدفعهم إلى التجمع خارج النطاق الرسمي.
- ✓ تأثير وسائل الإعلام عبر ما يعرف بالأمية النفسية وهي حالة يتعلم فيها الفرد أن يكوّن طموحات معينة ويتعلم الأساليب التي تتيح له تحقيق هذه الطموحات وفي حال الفشل يتحول إلى أخرى بديلة.
- ✓ العدوى الاجتماعية وربما هي نتيجة عدوى ثقافية تظهر في مكان وتتناقل كالعدوى حتى تصبح كظاهرة / كشعور مشترك . .يتأثر به أحدهم وبقدر ما يدرك الفرد شعور الآخرين يصبح وإياهم في حالة استعداد لتغيير تصرفاته تجاوبًا وتعاطفًا (الصرعة / الموضة/ الإشاعة/ الهوس الجماعي. .).

المفهوم الثاني:
الطبقات

عُرفت الطبقات أول أمرها منذ زمن سحيق مع مجتمعات بلاد الإغريق قبل الميلاد حين كان سكان القرية ينقسمون إلى طبقتين: فقراء وأغنياء، تنشب بينهم حروب كثيرة طاحنة ونزعات لا تنتهي، وخلال العصور الوسطى انقسمت المجتمعات طبقيًا إلى ثلاث رتب: الأغنياء، عامة الناس والفقراء دون أن تكون بين هذه الطبقات أيّة عاطفة اجتماعية، لكن مع طور اجتماعي آخر أصبح بين هذه الطبقات «مرونة اجتماعية» حيث قلّت حدة التنازع وأصبح الانتقال الاجتماعي بين الطبقات ميسّرًا إلا أن ما ميّز هذه المرحلة هو توسّع نسبة الطبقة المتوسطة بين أفراد المجتمع الحديث بشكل ملحوظ.

*** الطبقة من وجهة نظر اجتماعية:**

إن تصنيف الناس في طبقات اجتماعية ظاهرة ملازمة لوجود الجماعات البشرية، لأن هناك عوامل تجعل من التشطير الاجتماعي أمرًا مفروضًا، فقدرة الإنسان على التعلّم تختلف من فرد لآخر، كذلك إجادة طبيعة عمل تختلف من جماعة لأخرى، وبعدما كان يُقال عن المتعلّمين بأنهم القدوة والنخبة، وكل من لا يعرف القراءة أو غير متعلم هو إنسان آخر إلا أن حد التفاوت لم يقف عند حدود المعرفة والعلم بل امتد نحو مستويات أخرى:

- ✓ **اجتماعيًا**: هناك أغنياء وفقراء/ سادة وعبيد/ سود وبيض/ عائلة معروفة وعائلة وضيعة.
- ✓ **اقتصاديًا**: إقطاع وفلاحون / رأسماليون وعاملون/ أرباب وخدم.
- ✓ **سياسيًا**: تقدمي وراديكالي/ موالٍ ومعارض/ يمين ويسار..

✓ دينيًا: مؤمن وغير مؤمن/ ملتزم وأصولي/ منفتح ومغلق/ متشدد ومتساهل.

في مجمل هذه التنوعات هناك توجهات أيديولوجية تحكم الأفراد المنضوين في سياقها بأنماط سلوك محددة سواءً باتجاه الأفراد المماثلين لهم (مجموعة . . .مع) أو باتجاه الآخرين المختلفين عنهم (مجموعة ال. . ضد). كما في النماذج التالية:

1 ـ النخبوية:

يبرز مفهوم النخبة كقوة منظمة تسود أي وسط اجتماعي، وداخل هذه المنظمة نواة تدير دفّة الأمور بشكل مباشر وكأن السلطة الفعلية بيدها، خاصةً بعدما أشار إليها كل من الفيلسوف الإغريقي (أفلاطون) في كتابه الجمهورية الذي دعا فيه إلى تسليم السلطة السياسية «لنخب حاكمة» و(كارل مانهايم) في إطار أطروحته النظرية عن النخبة الذي يرى ضرورة تسليم الحكم السياسي لنخبة من المثقّفين الأحرار تكون مهمتهم قيادة البشر نحو العدالة والمساواة، وميزتها أنها تختار الأكفاء من خارج الإطار الطبقي والانتماءات الأيديولوجية كي يكون حكمها حياديًا. وفي الوقت الذي ينظر الناس إلى النخبة على أنها جماعة تمتلك صفات يثمّنها المجتمع (مراكز إدارية حساسة/ قوة عسكرية/ كفاءات علمية. .) تتميز هذه الجماعة بخصال أبرزها:

* إمكانية التأثير على سائر الأفراد لما تمتع به من قوة وسلطة.

* عددها غالبًا يكون أكثر بكثير من عدد الطبقة.

* أفرادها متحدون، كلّ منهم يعرف الآخر ويتفاعلون من أجل أهداف مشتركة.

* جماعة متماسكة لا توفر المجال بسهولة لأي شخص خارجي الانتماء إليها.

* يظهر على أفرادها أحيانًا الأبهة/ العظمة / المجد. .

وفي سياق متصل يربط باحثون في علم الاجتماع وأبرزهم (فيبر) النخبوية بفرص الحياة (life chances)، حيث تتيح لبعضهم الفرص في أن يكونوا من ذوي المكانات الاجتماعية الراقية وظروف العيش المرفه من خلال فرصة توليهم لوظائف هامة في المجتمع إما نتيجة جهد ذاتي (تعليم / وإنجازات) وإما نتيجة ظروف استثنائية (استزلام سياسي/ . .) حيث يدخل عندها ممن تمتعوا بفرص الحياة الاستثنائية ما يصطلح على تسميته «النادي الاجتماعي المميز». . قد لا تهيأ الثروة والمنزلة والقوة السعادة، لكن في حدها الأدنى تقدم فرصًا لحل الكثير من مشكلات الحياة اليومية التي يواجهها أبناء طبقة الدنيا عبر عملية حراك اجتماعي في أن يكونوا من أصحاب الامتيازات. ولعل أبسط مثال على ذلك ما يسيمه السوسيولوجي (ريتشارد شيفر) ب: digital divide، التشطير الرقمي المنبثق عن ثورة المعلوماتية واستخدام الإنترنت، فالعائلات الفقيرة وقاطنو الأحياء الشعبية قلما يستركون في هذه الخدمة في منازلهم نظرًا لأكلافها الدورية، بينما العائلات الثرية تكون فرص الحياة التفاعلية بالهواتف والإنترنت والتواصل التقني أكثر توفرًا.

2. الأرستقراطية:

ويحددها العالم الاجتماعي (ماكس فيبر) من خلال مظهرين: المرتبة (status) وأسلوب الحياة (lifestyle)، فبحسب دراساته هناك تمايز يحصل بناءً على الوراثة في المناصب والألقاب في أي جماعة بشرية، ومن شأن هذه الوراثة أن تضع الناس في امتيازات ومستويات اجتماعية راقية، كما هو الحال بالنسبة للأطباء والمحامون في المجتمع البريطاني الذين يعتبرون من أبناء الطبقة الراقية في مقابل ما يعرف بالطبقة المنبوذة اجتماعيًا. وافترض (فيبر) أن الأرستقراطية تتحدد من أسلوب الإنسان في المعاش وفي طريقة استهلاكه لا في طريقة إنتاجه، هذا الأسلوب الذي يرتبط بمدى توافر اختيارات فرص الحياة المرفّهة من طرق اللبس إلى استغلال أوقات الفراغ وكيفية قضاء الإجازات أو الانضمام إلى مجالات ترفيه وحضور حفلات الموسيقى العالمية. . تُظهر بعض الأرقام المتوفرة عن النشاط الاستهلاكي في المنطقة

العربية، وخاصة حول بعض السلع الكمالية والرفاهية، مؤشرات عن التوجهات الاستهلاكية لدى المواطنين:

* ففي مجال الأثاث: يقدر معدل النمو السنوي لسوق الأثاث في السعودية مثلًا بنحو 4%، ويبلغ حجم هذه السوق ما يزيد على 800 مليون دولار. وحجم إنفاق الأسر السعودية على الأثاث يسجّل ارتفاعًا مستمرًا، حيث يزيد على 3% من الدخل السنوي للأسرة وفقًا لدراسات السوق، وتغيّر الأسر السعودية المتوسطة الدخل أثاثها كل 5 سنوات، فيما تنخفض المدة للأسر الأكثر دخلًا، والتي تغير أثاثها كل 3 سنوات.

* العطور ومستحضرات التجميل: أظهرت دراسة اقتصادية أنّ إنفاق المستهلك الخليجي على العطور ومستحضرات التجميل، تعتبر من أعلى معدلات الاستهلاك في العالم. وقدرت حجم وإرادات مجلس التعاون الخليجي منها بنحو817 مليون دولار سنة 1995م. وأشارت الدراسة التي أعدها مصرف الإمارات الصناعي إلى أنّ دول الخليج استوردت سنة 1995م نحو 190 ألف طن من العطور ومواد التجميل، ولاحظت الدراسة تزايد استهلاك العطور ومستحضرات التجميل بصورة مطّردة مع ارتفاع مستويات المعيشة.

* الذهب والألماس: تعتبر السعودية ثالثة أكبر سوق عالمية للذهب تقدر قيمتها 3 بلايين دولار سنويًا، وقدّر مسؤول في شركة (دي بيرز) أكبر شركة للألماس في العالم حجم سوقه ـ عدا بقية الشركات ـ في منطقة الخليج بأكثر من بليون دولار سنويًا. وقال إن الطلب على الألماس في منطقة الخليج يعتبر من الأعلى في العالم.

* السيّارات: تنفق السعودية ما يصل إلى 13 بليون دولار في سوق شراء السيّارات، ما يجعلها أكبر سوق للسيّارات في الشرق الأوسط، حيث تستورد أكثر من 275 ألف سيارة سنويًا تقدر قيمتها بأكثر من 9، 10 بليون دولار. وفي الأردن يعكس واقع اقتناء الطلاب الجامعيين السيارات تفاوت

طبقات المجتمع ويمثل مرآة لواقعه ومدى الهوة التي تفصل بين فئاته وأطيافه، ما يمكن أن يرسم صورة للمشهد الاقتصادي المختل بين قلة تملك وكثرة لا تملك، وما تجسده ثقافة التفاخر والتباهي الاستهلاكية. معظم هذه السيارات إن لم يكن جميعها تعود لطلبة تتراوح أعمارهم بين 18 و23 عامًا المفترض بأنهم معالون من قبل أهلهم ولا دخل لأغلبهم على الأقل. وتشير دراسة لأمانة عمان إلى أنّ «40% من طلاب الجامعة الأردنية يستخدمون سيارات خاصة»، في الوقت الذي يقدر فيه عدد طلاب الجامعة بحوالي 40 ألف طالبًا فلا يمكن أن تصنف هذا الصورة إلا تحت بند المباهاة والتظاهر الاجتماعي ومظهر من مظاهر الاستهلاك في مجتمع يضم 60 ألف أسرة جائعة.

عند الحديث عن سلوك الاستهلاك ولماذا يتجه الأفراد إليه؟ قد تكون الإجابة البديهية أن سلوك الاستهلاك يحقق إشباعًا لاحتياجات ضرورية لايمكن الاستغناء عنها أو حتى لجعل الحياة أكثر سهولة عن طريق اقتناء المنتجات الكمالية. إلا أن الدراسات أثبتت أن للمستهلكين أهدافًا أخرى يسعون إلى تحقيقها من خلال سلوكهم الاستهلاكي، فمفهوم الاستهلاك التفاخري، أحد أهم المفاهيم التي توضح أنماط الاستهلاك ذات الطبيعة الطبقية، هو وسيلة للتعبير عن الثراء والمنزلة الاجتماعية من جهة، ومن جهة أخرى هو وسيلة لتحقيق غاية هامة وهي بناء هوية اجتماعية جديدة، أي أن المستهلك يستطيع من خلال سلوكه الاستهلاكي أن يخلق طبقة اجتماعية أعلى لنفسه وأفراد أسرته، و يؤكد العالم (أونتس) وآخرون أن عملية الاستهلاك عند الطبقات الدنيا في المجتمع هي أمانٌ من العوز والحاجة، لذلك ينصب جل الإنفاق الأسري على المنتجات الغذائية، أما الطبقات الأعلى فهي تحقق وظائف أخرى مثل عرض للمنزلة الاجتماعية، بناء الهوية الخاصة إلى المشاركة في الطبقة الاجتماعية وغيرها.

*** الطبقة من وجهة نظر اقتصادية:**

انطلاقًا من أسس التفاوت الطبقي يظهر وجود ثلاث طبقات رئيسة:

1 . **الأرستقراطية التقليدية:** وهي الطبقة التي تحتل موقعًا هامًا في بنية الحركة الاقتصادية، إذ تسيطر على ملكيات كبيرة من الأرض ورأس المال وتنعم بالجاه والنفوذ وتمارس الاستغلال والقهر ضد الطبقات الكادحة، تتكون هذه الطبقة إجمالًا من فئات أبرزها: مالكي الأرض الكبار/ شريحة التجار والصناعيين/ أصحاب المصارف/ الأغنياء الجدد.

2 . **البورجوازية الجديدة:** وتضم أصحاب الملكيات المتوسطة وأصحاب المهن الحرة والموظفين البيروقراطيين والضباط الكبار، أي تلك الشرائح التي تشغل موقعًا وسطًا في التراتب الاجتماعي فلا يعتمدون على استئجار اليد العاملة ولم يفقدوا ملكية وسائل إنتاجهم.

3 . **طبقة البروليتاريا:** تشكل هذه الفئة البشرية قاعدة الهرم الطبقي كونها تتألف من الفلاحين الذين لا يملكون أرضًا أو من العمال المأجورين في المدن، أو من الكادحين الذين لا يملكون سوى قوة ساعدهم، يلحق بهذه الطبقة أيضًا: الجنود / الباعة المتجولون/ الخدم/ .

توصف العلاقة بين هذه الطبقات بأنها علاقة تناقض وتنافر بسبب عدم المساواة في الملكية، ويكون التنافس على أشده لناحية رغبة الطبقات الأدنى بالحصول على مكانة ونفوذ أو ثروة ومكتسبات أخرى من الكبار الذين يعلوهم ويحتكرون الفرص أمام تقدّمهم، وقد يتحول هذا النفور إلى مزيد من الصراعات والتوتر. وفق ما تناوله المفكر الاجتماعي (كارل ماركس) عند حديثه عن **الصراع الطبقي** الذي اعتبره نتيجة صراع على الامتيازات الاقتصادية بين المُستغِل والمُستغَلّ، بل هو نتيجة حالة من الاغتراب الإنساني التي تفرضها ظروف الإنتاج الآلي وحرمان العاملين عليها من فرص إشباع حاجاتهم النفسية نتيجة استئثار الرأسماليين لكامل وقتهم وطاقاتهم، فيشعرون حينئذ بأنهم: طبقة مغلوب على أمرها، مسخّرون لأعمال غيرهم، مهدّدون في

معيشتهم وصحتهم، ومعرّضون أكثر من غيرهم للقهر والاستغلال، وهذا ما يجعلهم يعيشون حالة اغتراب تدفع لاحقًا إلى أن يتضامنوا ويشكّلوا قوة اجتماعية ونفسية وسياسية من أجل تحقيق أهداف مشتركة ليس أقلها المطالبة بحقوقهم كعاملين. لجهة:

☆ تحسين الوضع المادي والتعويضات العائلية وزيادة المداخيل الاجتماعية.

☆ الحق في العطل الأسبوعية والسنوية وتخفيض ساعات العمل.

☆ الحق في التنظيم النقابي.

☆ تأمين الحد الأدنى للأجور.

وفي الوقت الذي يجد (كارل ماركس) في الطبقة وجهًا ثوريًا ومبعثًا على الصراعات، ثمة باحثين اجتماعيين يقولون بصوابية وجود الطبقة لما تساهم به من حوافز نفسية تجعل الناس يتنافسون لنيل المراكز الأفضل، بل هناك شعوبًا لا زالت تجل وتقدر الطبقية كشأن عقائدي قائم على احترام الموروث الديني ـ الاجتماعي، ففي الديانة الهندوسية مثلًا هناك نظام طبقات معتمد منذ وصول الآريون إلى الهند ولغاية اليوم وهو نظام مقدس لأنه لم يكن ـ وبحسب معتقداتهم ـ نتيجة الإرادة البشرية بل هي تقسيمات تمت بفعل إرادة إلٰهية، وعليها بنى الهندوسيون تفاوتهم الطبقي، فالبشر يعودون إلى أصل واحد هو «مانو» (أول البشر) ومن رأسه جاء أعظم الناس وأكثرهم قداسة وهم البراهمة والكهنة والقضاة، ومن ذراعيه جاء المحاربون والملوك (الكاشتر) ومن فخذيه جاء التجار والصناع (الفيشية) ومن قدميه الخدم والعبيد (الشودرا) وبناء على هذا النظام يعتقد الهندوسيين ب:

☆ ضرورة احترام هذا النظام الطبقي باعتباره مقدسًا.

☆ لا يجوز للرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أعلى، في حين يجوز له أن يتزوج من طبقة أدنى.

☆ البراهمة صفوة الناس لهم الحق في أن يأخذوا من أموال الآخرين ما يشاؤون.

☆ لا يجوز للملك أن يحاكم البرهمي بالقتل.

☆ الشخص الذي هو من أصل برهمي أو برهمي صغير يفوق قدرًا رجال الطبقات الأخرى ولو ناهزوا المائة من العمر.

* هل يمكن أن تنتظم الحياة الاجتماعية دون هرم اجتماعي متمايز؟

طُرحت هذه المسألة من قبل العديد من المفكرين ورجال الدين والباحثين الاجتماعيين وهيئات المجتمع المدني وغيرهم من هيئات التحرك الإنساني المناهض للتمييز العنصري الذين أخذوا ينادون بأفكار المساواة في الحقوق والواجبات، في موازاة ذلك أخذ علماء الاجتماع يلاحظون انحسار الطبقية لدى أغلب المجتمعات البشرية، حيث لاحظ الباحث الأنتروبولوجي (GUNNAR LANDMAN) أثناء دراسته لقبيلة كويابوبس في غينيا الجديدة انتفاء الفروق الاجتماعية القائمة بين سكان هذه القبيلة، فجميعهم يسكن منازل متشابهة، متقاربون في وسائل الحياة والعيش، حتى الرجال المحاربون والصيادون والخياطون، الذين يعتبرون «أعلى شأنًا» لا يقابلهم طبقيًا إلا من لايملك مهنةً أو أرضًا أو العزّاب. كذلك أشار باحثون أن ما يحفّز الناس بالمضي قدمًا ليس إيجاد الفوارق إنما وجود الرضا الذاتي عن العمل وقيم المهنة بحد ذاتها والتقدير الذي يحصلون فيه على عمل متقن هو ما يجعل الناس تحوز مراتب الامتياز. مما يعني أنه ليس الدخل الأعلى هو المؤشر لجعل الناس يتمايزون ودليل ذلك هناك شركات تدفع أجورًا عالية لعمال عاديين مقابل أعمال خطرة أو مبالغ مالية ضخمة تُعطى لمن لا موقع اجتماعي مهم عندهم كما هو الحال مع نجوم الرياضة.

مع هذه الاتجاهات الجديدة القائلة بانحسار الطبقية، يؤكد باحثون آخرون على وجود الطبقية في أكثر من مجتمع تتجلى في مظاهر اجتماعية تكوّنت نتيجة

فرص حياة حظي بها بعضهم دون سواهم فنقلتهم من عالم الفاقة إلى عالم أكثر ثراءً وتميّزًا في السلم الاجتماعي. كما هو الحال مع الشباب المغترب الذي ينحدر من أسر عانت الفقر ثم وبجهود دؤوبة في المهجر جمعوا ثروات وغيّروا من واقع حياتهم وحياة أسرهم، وطلاب العائلات الدنيا الذين يحصلون علمًا متقدمًا وعملًا رائدًا فينتقلون من حياة الفاقة إلى حياة الرفاهية.

ولكن هل ينبغي للمرء أن يغترب ويعمل ويدرس تخصصات أكاديمية عليا كي يتغيّر مستواه الاجتماعي وينتقل من طبقة إلى أخرى؟ هل فرص الحياة ملازمة بالضرورة للطبقية؟ بالطبع لا!! يجيب بعض المحللين الاجتماعيين: لماذا الاعتقاد دائمًا بأن إنتاج المال الوفير هو خاصية أبناء الطبقات العليا في المجتمع؟ ذلك أنه في مجتمعات الغرب لا فرق بين من لديه مال وآخر ليس لديه شيء، بل أكثر من ذلك يُلاحظ بأن ذوات الدخل الأعلى والأدنى هم سواسية في مواقع الحياة الاجتماعية، يلتقون في أندية واحدة، يشترون من مراكز التسوق نفسها ويدخلون المقاهي عينها ولا ضير في ذلك. مما يعني أن النظرة إلى الطبقية تبقى نسبية مأخوذٌ بها في مجتمعات دون أخرى فعندما يقول لك أحدهم بأن ابنته طبيبة وابنة صديقه نادلة في مطعم، لا يعني ذلك أنهما مختلفتان في المستوى الاجتماعي أو العلمي وإنما في المهنة وحسب، فالمهن بالنسبة لهم بمتناول الجميع وكلٌّ يعمل بالمجال الذي يرغب.

ورغم أنه ليس من السهولة بمكان أن يُصنّف فرد معين إلى أيّة طبقة ينتمي وبأن الطبقات ليست رتب هرمية موجودة في المجتمع، إلا أنه يبقى ـ ونظريًا على الأقل ـ هناك ترتيب لفئات دون غيرها في مواقع اجتماعية بناءً على دورها المهني في المجتمع، مما يحقق ذلك امتيازات مالية تنعكس على حياتها اليومية، ومثل هذه الامتيازات تجعل الناس يؤطرونهم في فئة ال: CLASS، بناءً على مظاهرهم الفارهة في الممتلكات: سيارات حديثة/ أثاث منزلي فاخر/ ثياب ذات نوعية عالمية. .إلخ.، وهذا ما يفسر ظاهرة البرستيج الذي يحدده ليس العمل بحد ذاته وإنما نظرة الناس وتقييمهم وتقديرهم لمهنة دون غيرها، كما تبين من دراسة إحصائية قامت بها إحدى المجلات الواسعة الانتشار في الولايات المتحدة الأميركية، حين ذكرت جميع وظائف المجتمع

وطلبت من قرائها اختيار أفضلها (واعتُبرعلامة 100 أفضل تقدير وصفر لأدناها مستوى) فتبين بالنتائج المعطيات التالية لأبرزها:

الطبيب	86	حانوتي	49
المحامي	75	السكرتيرة	46
أستاذ جامعي	74	موظف البنك	43
رجل الدين	69	المزارع	40
الممرضة	66	الحلاق	36
معلم ثانوي	66	مربية أطفال	35
شرطي	60	سائق الباص	30
صاحب مكتبة	54	مزيل النفايات	28
الإطفائي	53	حاجب	22
العامل الاجتماعي	52	موزع صحف	19

إذا كان التفاوت الطبقي يتم تناوله بناءً على مؤشرات الدخل أو الممتلكات أو نمط الاستهلاك أو المستوى التعليمي أو مكان الإقامة فهو لغايات دراسية ـ إحصائية فقط، تستخدم غالبًا لمعرفة موقع الناس على السلم الاجتماعي، لأن التطور العام للحياة الاجتماعية يقدم براهين إيجابية عن الوصول إلى مجتمعات تنتفي فيها الفروق الطبقية، فالمجتمعات الحديثة تتغير بخطى سريعة الإيقاع، إذ كثير من الفروق التقليدية المستندة إلى الدين والسياسة فقدت وهجها بين النبلاء والعوام، بين رجال الدين والعلمانيين وتميل الفروق الاقتصادية الناتجة عن الحركة الصناعية أيضًا إلى التناقص عما سبق بفعل التطور التقني وإعادة النظر في توزيع المداخيل بناء على سلم أجور وضرائب تصاعدية ورواتب وفق الكفاءة، يضاف إلى ذلك التطور الفكري وأثره في ثورة التحرك الاجتماعي التي تدعو إلى المساواة والعدالة والقضاء على التمييز العنصري. كذلك تحول الواقع الاجتماعي للطبقات العاملة مع التشريعات الاجتماعية المختلفة وخضوع أرباب العمل لمطالب النقابات العمالية والليونة في التعاطي مع هذه النقابات جعلت العمال يعيشون في مناخ اجتماعي مختلف عن المناخ الذي عرفته الأجيال السابقة.

* الطبقة الوسطى

لعل القوى المحركة الأكثر ثورية التي اتسم بها مطلع القرن الحادي والعشرين اعتمدت على نمو الطبقة الوسطى بنسب كبيرة عالميًا، ويتوقع بعض المراقبين أنه مع حلول عام 2015 سيكون هناك نحو ملياري شخص ينتمون إلى الطبقة الوسطى في العالم، قد يبدو هذا الرقم كبيرًا على نحو يكاد لا يصدق لكنه لا يجافي الواقع، فلدى الصين ما لا يقل عن 100 مليون إنسان ـ بحسب المعايير الصينية ـ من الطبقة الوسطى، أما في أمريكا اللاتينية والتي طالما ضمت طبقة عليا صغيرة وطبقة فقيرة كبيرة، فستشهد بين الفينة والأخرى نموًا راسخًا ومهمًا في حجم الطبقة الوسطى، ومن الممكن جدًا أن يتراوح الرقم مع حلول العام 2015 بين 250 ـ 300 مليون شخص من ذوي الطبقة الوسطى وإذا ما أضفنا كلًا من نسب أوروبا وأمريكا الشمالية وأندونيسيا وإيران فيصبح الرقم في حدود المليارين، ولا ننسى أن مصطلح الطبقة الوسطى لا يعني المسائل المتعلقة بالدخل فقط بل يشمل أمورًا أخرى قد تكون أكثر أهمية، منها مجموعة القيم التي تدخل في تركيبة العقلية البورجوازية، ومن هذه القيم الإيمان بالحرية وفرص الطموح والحياة الأفضل للأطفال وأهمية التعليم.

لكن ماذا نعني بالطبقة الوسطى وهل لها وجود في المجتمع اللبناني؟

يُقصد بالطبقة الوسطى تلك الفئة التي يستوي لديها حال المعيشة بين حد الفقر النسبي نزولًا وحد الاكتفاء الواسع صعودًا على عتبة الغنى، ويلعب في تحديده غالبًا مؤشر الدخل والإنفاق، حيث يقوم أبناء هذه الطبقة بمواءمة بين إمكانيات دخلهم ووجهات الإنفاق. لهذا كلما قلّ الدخل وزاد الإنفاق كلما كان من المتوقع أن تحدث أزمة في ميزانية الأسرة، (ويبرز الوضع بشكل ملحوظ مع زيادة متطلبات الحياة الأسرية المستجدة وارتفاع نسبة الغلاء للاحتياجات دون تحرك لمستوى الدخل بما يوازيه). إلا أن مستويات الدخل ومستويات الإنفاق تختلف بين منطقة وأخرى وبين فئة وفئة، خاصة مع تنامي الاحتياجات، فبعدما كان كثيرٌ من المقتنيات هو من قبيل الكماليات أصبح اليوم من الضروريات كالسيارة والتلفون والأجهزة الإلكترونية.

وتتصف التجربة اللبنانية للطبقة الوسطى بخصوصية تتصل بالتركيبة الاقتصادية للمجتمع اللبناني والتحدّيات السياسية وبالنتائج المتقلّبة للأزمات القائمة، وقد أدت هذ الخصوصية والأزمات إلى انعكاسات حادة على المؤشرات المعيشية العامة وعلى وضعية الطبقات في لبنان. إذ بناءً على استقصاء ميداني لنحو مئة وخمسين ألف عائلة لبنانية (2007) توصلت الدراسة إلى نتائج منها:

- ✓ **أن دخل الأسرة كما إنفاقها اتجه إلى انخفاض واضح مع تقدم الإنفاق على الصحة إلى مرتبة متقدمة على حساب النقل والتعليم، وهذا المؤشر يعكس صورة تطور الإنفاق وثبات الدخل ويشير إلى تراجع الادخار الأسري (والمثال على ذلك أنه بحسب موازنة 2006 كان يمثل متوسط الإنفاق الشهري 2250711 ل.ل. لعائلة مؤلفة من خمسة أشخاص).**
- ✓ **تبين أن 4 ملايين ليرة لبنانية شهريًا هي خط الكفاية العليا واعتبر أن 900000 ليرة لبنانية شهريا لأسرة من 4 أفراد يمثل حد الفقر وإذا انحدرت عن هذا المبلغ فهي في فقر مدقع.**

كذلك بينت المعطيات المقدمة من دراسة الدكتور غسان الشلوق بعنوان: «الطبقة الوسطى: التجربة اللبنانية»، أن الطبقة الوسطى تدحرجت بوضوح في السنوات الأخيرة في لبنان، فحجمها تقلّص وحصل تبدّل واسع في هيكليتها لناحية بروز غلبة متزايدة للشريحة الدنيا (الفقيرة) على حساب الشريحتين الوسطى ـ المعتدلة والعالية التي على حدود الكفاية المطلقة، وبحسب الإحصاءات التي قام بها الباحث فإن الطبقة الفقيرة ـ بل التي تحت خط الفقر ـ نسبتها 4.38%، والمتوسطة 56% والغنية 3% ولكن تبين أن هناك قسم كبير من نسبة 56% من الطبقة المتوسطة ينحدر نزولًا نحو الطبقة الفقيرة، حتى أصبحت الفئة الفقيرة تتوسع بزيادة 15%، وبالمقابل تبيّن تقلّص للطبقة التي تظن نفسها وتعلن بأنها غنية وذلك لأسباب منها:

1 . تراجع المداخيل الفعلية بسبب تجميد الأجور منذ العام 1996.

2. ارتفاع الأسعار وزيادة الاستهلاك.
3. إفلاس مؤسسات وبروز ظاهرة البطالة.
4. تعثّر الوضع السياسي واضطراب الوضع الأمني مما يحد من نشاط المؤسسات المنتجة عن الحركة التسويقية وينعكس على حياة العمل والإنتاج.
5. دخول عمالة أجنبية منافسة بشكل كثيف حدّ بدوره من اليد العاملة المحلية.

في المحصلة يلاحظ أن قسمًا كبيرًا من أبناء الطبقات المتوسطة يشهد تراجعًا في المداخيل، لكن الدراسات البيانية أثبتت أنهم الأكثر استهلاكًا وبالتالي الأكثر قدرةً على تحريك الأسواق، وأنهم يشكّلون بين 45 و70 في المئة من قوة العمل بحسب أوضاع الدول، ويرفع هذه النسبة غالبًا حجم العمالة النسائية، لهذا يعوّل كثيرون على أهمية هذه الطبقة وأيّ «اندثار أو تدحرج» في مستواها المعيشي قد يعزز عوامل الاضطراب المرادف للإفقار وعلى مستوى أشد قد تصبح تهديدًا مباشرًا لبنية الدولة ولمفهوم الوطن.

وبإطار آخر يقرر الباحث الأمريكي (ليستر هيثرو) بأن هناك اتجاه لاختفاء الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة بعدما انخفضت مستويات الدخل من 125% إلى 75%، فقط من نسبتهم 22% من أبناء المجتمع الأمريكي يعتبرون من ذوي الطبقة الوسطى (بحسب دراسة قام بها خلال العام 2004)، ويرجع بعض علماء الاجتماع تعليقًا على هذه المؤشرات، انكماش الطبقة الوسطى لجملة أسباب منها:

1) اختفاء فرص العمل من أمام ذوي التعليم المتدني، فقد ثبت أنه سوق العمل يفضل اليد العاملة الجامعية على ما دونها.

2) المنافسة العالمية للجودة وسرعة التطور التكنولوجي، فالحداثة تفرض مواكبة علمية ومهارات يد مستوعبة للتغير وهذا ما لا يتاح لأبناء الطبقات الدنيا والمتوسطة.

3) نمو ظاهرة الاعتماد المؤقت على قوة العمل(التعاقد الوظيفي)، مما

يرافقه صعوبة توفر الضمانات الصحية ومعاش التقاعد، فيضطر عندها أبناء الطبقة الوسطى البحث عن بدائل لشبكة الأمان الاجتماعي.

4) انحسار دور النقابات العمالية، فيما سبق كان للنقابات دور فاعل على صعيد تكريس حقوق العمال لمستحقات تضمن حياة مستقرة كطبقة وسطى، لكن مع نمو الاقتصاد الحر وتغير طبيعة العمل المؤسساتي وتغير هيكيلته لجهة ساعات العمل، والبقاء للأفضل والطرد التعسفي، تصبح فرص حياة الطبقة الوسطى رهن التوقف والاندثار.

من أولويات الطبقات الوسطى ثبات الدخل وتوفر الحوافز التي تؤمن لها حياة مستقرة، وتريد عائلات هذه الطبقات أن تؤمن المسكن اللائق والتخرج الجامعي لأبنائها والتعليم الأفضل لأطفالها والعناية الصحية المفترضة، إلا أن كل ذلك بثمن وحالما لا تتوفر «تكاليف» الطموحات تتقلص الأمنيات إلى حدها الأدنى، لتنقل بعدها إلى مستوى الطبقات الدنيا أو تضاعف من جهدها في مجهودات عمل إضافية لتأمين مداخيل أخرى كي تستمر بمستوى الطبقة التي هي عليها. .ولكن إلى أي مدى يمكنها ذلك في ظل التحولات الاقتصادية والاجتماعية القائمة والمرتقبة؟.

المفهوم الثالث:
المجتمعات

ماذا نعني بالمجتمع؟

تُجمع التعاريف المتداولة حول مفهوم المجتمع على أنه: «مجموعة من الأفراد على بقعة جغرافية محددة من الناحية السياسية، لها مجموعة من الأحكام الاجتماعية والأهداف المشتركة التي أساسها الدين واللغة والتاريخ» ومن أهم العناصر التكوينية للمجتمعات الإنسانية هو مجموع السكان ووجود تركيب اجتماعي يتكوّن من قوانين يحدد طبيعة العلاقات بين أفراده. لهذا يصنّف الباحثون المجتمعات تصنيفات شتى:

✓ **إما بناء على «تركيباته»، حيث هناك:**

1) **المجتمع البسيط**: وهو التجمعات البشرية القائمة على وحدات اجتماعية متفاهمة بالولاء والقرابة والمصلحة المشتركة، وفقًا لمجموعة من العلاقات التي يغلب عليها التضامن والتعاون (من أمثلته: المجتمع البدائي/ القبلي/ البدوي).

2) **المجتمع المركب**: وهو شكل آخر من أشكال التجمعات البشرية تطوّر نتيجة الحداثة ونما في ظلها، في إطاره ليست البقعة الجغرافية العنصر الأساس لتشكّله إنما الانتماء المهني والعلمي والمصلحي العام.

3) **المجتمع التعددي**: وهو مجتمع الجماعات التي تحتفظ بهوياتها الخاصة، وفق صيغة تؤالف بين الهوية الخاصة والهوية العامة، والتفاهم على إقامة دولة مركزية واعتماد نظام سياسي وتربوي موحد (صورة هذا المجتمع موجودة في: سوريا/ الجزائر/ المغرب/ الهند / إندونيسيا/ ماليزيا..).

4) **المجتمع المتجانس**: يتكون من جماعة واحدة متصهرة اجتماعيًا وثقافيًا، كما تتوحد الهوية الخاصة والعامة في بوتقة واحدة جامعة، يسود في هذا المجتمع نظام سياسي مركزي، (كما في تونس/ مصر/ ليبيا).

5) **المجتمع الفسيفسائي**: يتألف من عدة جماعات تغلّب هوياتها الخاصة على المصلحة العامة، تتصف العلاقات بين أفراد وجماعات هذا المجتمع بالتراوح بين عملية التعايش والنزاع وعدم القدرة على الاتفاق حول بعض الأسس المتعلقة بشأن أمورهم السياسية وغيرها من القضايا التي تهم المجتمع ككل، ومن الأمثلة على هذا النمط لبنان/ أثيوبيا/ نيجيريا/ تشاد.

- ✓ **وأما بناءً على نوعية وطبيعة الجماعات المتواجدة فيه حيث أجمع علماء** الاجتماع والأنتروبولوجيا على تحديد أبرزها ب: التقليدي/ المعاصر/ الريفي/ الحضري. . .الذي تتواجد تقريبًا في كل مجتمع بشري.

1 ـ المجتمع التقليدي:

لم يقدم المفكرين الاجتماعيين تعريفًا رسميًّا للمجتمع التقليدي، إذ في الوقت الذي يعرّفه (أوغيست كونت) على أنه «البناء الجمعي الذي يتسم بالانسجام في وظائفه»، ويعتبر (عبد الرحمن بن خلدون) هو المجتمع الذي يتصف بالخصائص التالية:

- ✓ **يتعاون جميع أفراده فيما بينهم للحفاظ على توازنه.**
- ✓ **يدير هذا المجتمع «حاكم» ملهم.**
- ✓ **تنتشر في أوساطه ثقافة خاصة.**
- ✓ **تظهر فيه العصبية والشعور القوي بالانتماء والولاء.**

أما (إميل دوركايم) فيراه تنظيمًا اجتماعيًا ثابتًا، يسوده شعور جماعي قوي يعرف: بـ «التضامن الآلي» ومثل هذا التضامن ينتج عن التشابه بين الناس بصورة ملحوظة وهو تماثل يعبر عن وجود عواطف ومشاعر مشتركة وعن مشاركة عامة في القيم والمعايير. كما يتسم هذا المجتمع بتجانس الأفكار

والمعتقدات والعادات والآراء مع وجود ولاء ملحوظ للضمير الجمعي الذي يظهر كقوة رادعة أو عقوبة صارمة إزاء أي انتهاك يهزّ النظم التقليدية، فالجريمة ـ ووفق سياق هذا المجتمع ـ فعل يزعج الضمير الجمعي مما يضطر إزائها لأن يتصرّف بكبح شديد، والزنا بعرف الجميع فعل محظور وأي فعل له ثمّة قوة محاسبة عليه. ويحدد باحثون معاصرون المجتمع التقليدي من خلال شيوع ما يسمى بالموروث الثقافي القديم إزاء الحديث المعاصر، بالموروث الديني العفوي مقابل الكنسي السلطوي، بالشعبي مقابل النخبوي وبالهامشي مقابل الرسمي.

وإيجازًا للعرض يتميز المجتمع التقليدي بالمعالم التالية:

1 ـ يتألف من جماعة بشرية يتزاوج أعضاؤها فيما بينهم حسب اتفاقات عائلية مسبقة، أو بناء لطلب أشخاص ذوي مكانة، كما توجد معرفة تامة بين السكان لهذا يُعرف الأشخاص وأماكن سكنهم بناء على العلاقات السائدة.

2 ـ تستند المهمات والأدوار الاجتماعية بالعُرف إلى أشخاص ذوي مكانة، ذلك أن التنظيم السياسي يتمحور حول منصب الزعيم/ الوجيه/ الشيخ/ الذين يشكلون بدورهم صلة الوصل مع الهيئات الرسمية (الحكومية).

3 ـ يتم الضبط الاجتماعي في ظل هذا المجتمع وفق التقاليد المقبولة طواعية بتأثير التربية المتوارثة القائمة على معايير أخلاقية، فإذا ما أراد أن يتصرّف أحدهم بفعل شائن يجد نفسه أمام رهبة «العيب» الذي قد تطاله وتلاحقه. لهذا يتحسّب كل من يريد أن ينحرف كي لا يُعيّر أو يُشهّر بسمعته.

* هل يوجد مجتمع تقليدي فعليًا اليوم؟

عبر دراسة له بعنوان «تحول المجتمع التقليدي» سعى (دانييل ليرنر DANIEL LERNAR) إلى بيان مؤشرات التقليدية ومدى ثباتها أو تحوّلها،

فأعدّ لذلك استبيانًا من مئة وسبعين سؤالًا توجّه به إلى 1600 مستجوبًا من ست دول شرق أوسطية هي: تركيا/ لبنان/ مصر/ الأردن / سوريا وإيران، حاول من خلاله أن يتبيّن الاتجاهات الذهنية والأفعال الاجتماعية القائمة والآراء حول مدى تقبل التجديدات واستخدامها ومدى تبنيها فرص التغييرالاجتماعي، فوجد بأن وسائل الاتصال تقدّم الظروف الفاعلة لإدراك مواقف جديدة وأساليب حياة مختلفة نوعًا ما عن الأساليب الممارسة بالتقليد. وبعد أن يستعرض (ليرنر) في دراسته لمفهوم العصرية (MODERNIZATION) من خلال بعض المؤشرات يخلص إلى القول بوجود ثنائية سائدة في أوساط العينة قطبها الأول مجتمع تقليدي/ بدائي (لاتسامه ببناء اتصالي محدود) وقطبها الثاني عصري/ حديث (لاتسامه ببناء اتصالي شامل) ثم يُصنّف سكان الشرق الأوسط ـ بناء على ذلك ـ إلى ثلاث فئات:

1) التقليدي (traditional) وهو شخص يفكر بطريقة يغلب عليها الطابع الديني أو الشعبي الموروث وهو نادرًا ما يغادر بيئته الاجتماعية أو عالم معتقداته.

2) المتحول (tansitional) وهو شخص يتمتع بشخصية حراكية يودّ أن يتغيّر ولكنه لا يملك إمكانية التغيير، وينتظر حتى تتأتى له الفرص.

3) المتمدن (modern) ويقاس أصحاب هذا التوجّه بعدة مسائل مثل نوع التعليم/ علمانية التفكير/ وسائل الاستهلاك الكمالية/ التعامل مع وسائل الاتصال الجديدة والقائمة.

ويستنتج هذا الباحث أن في الشرق تقليديّون تحوليّون بوجه أعم لما بات يظهر عليهم من مشاركة حضارية (urbanism)وانفتاح على عالم خارجي والتواصل معه وأخذه بوسائل الإعلام وامتلاكها، ويذكر في المبحث الذي أعدّه عن لبنان إلى أن الحياة التقليدية فيه قد أصبحت عرضة للغزو الثقافي البطيء من العالم الغربي، وأصبح كبار السن غير مناسبين للمكانة القيادية في الوضع الجديد المتحول، إذ غدت خبرتهم في الظروف الجديدة محدودة مما

ضيّق نطاق تأثيرهم وأصبح الشباب هم قادة الرأي لأنهم تلقّوا تعليمًا عاليًا في الخارج ويتصفون بحراك اجتماعي حديث حتى أصبحوا «**نخبة التغيير**».

2 ـ المجتمع المعاصر:

يربط كثير من الباحثين وجود هذا المجتمع بالسمات الثقافية الحديثة المنتشرة في وسطه، فارتباطهما معًا لا يدل فقط على حالة من تطور المجتمع، إنما يبين حالة الحراك الاقتصادي والمعرفي على مستوى التكنولوجيا التي تركت ظواهر عصرنة ملحوظة، ويمكن أن نتلمّس ذلك في كثير من الخصائص التقنية التي نستخدمها في حياتنا اليومية مثل شيوع العربات، استخدام الهواتف والحواسيب والابتكارات الفنية الأخرى التي لم تتحقق إلّا في مراحل متأخرة من التاريخ البشري. . حيث معها بدأت البشرية تشهد تغييرات هامة على الصعيد الاجتماعي وتوجّهات حديثة في الفكر والسلوك اليومي، وهذا الانعكاس هو يصطلح على تسميته بـ: «العصرنة» والمجتمع التي يشهدها يعرف بـ «المعاصر»، وأبرز سماته:

- ✓ **متغير وسريع التطور.**
- ✓ **المهمات والأدوار بأشخاص معنيين يتغيرون بحسب الظروف لارتباطها بتقسيم العمل.**
- ✓ **انحسار التشابه العقلي والأخلاقي بين أفراد هذا المجتمع.**
- ✓ **انتشار قيم النجاح الشخصي والكسب المادي والطموح والتحديث.**
- ✓ **برزو الفردية التي تظهر في تنوع الأذواق والمعتقدات والآراء.**

ومثلما في المجتمع التقليدي بدا التماثل هو المحرك الأساسي للعلاقات الاجتماعية وكيف أن هذا المجتمع قائم على تجانس أبنائه وتساندهم العفوي، فإن السمة الأبرز للعلاقات القائمة في المجتمع المعاصر هي «التباين»، والتضامن الموجود بين أفراده هو تضامن عضوي (لا آلي)

قائم على مبادئ تقسيم العمل. كما يتسم بتقدير عالٍ للعلم والمتعلمين والمهنيين والأخصائيين وإسباغ قيمة تقديرية على كل ذي معرفة، وتجري الأفكار الجديدة فيه بحرية ـ دونما تحفظ ـ وتنتشر الصرعات فيه بسهولة.

وثمة سؤال يطرح إزاء الحديث عن هذين المجتمعين: هل يمكن أن تبقى المجتمعات ثابتة على تقليديتها وأخرى على تطورها؟ هل يمكن أن يحدث طارئ ما يُغيّر من التقليدية نحو نمط حياتي آخر؟ باستعراض تاريخ المجتمعات يتبيّن بأن المجتمعات سواءً كانت تقليدية أو انتقالية أو معاصرة، قد تجمع من الخصائص ما يصعب معه تحديد سمة هذا المجتمع أو ذاك، والمثال على ذلك أن الاتصال الشخصي والذي يُعتبر من سمات المجتمع التقليدي نجده يعمل بكفاءة عالية في المجتمعات الحديثة، كما أن هناك الكثير من التقنيات المتطورة في المجتمع المعاصر موجودة في مجتمعات معروفة بتقليديتها. وهذا ما يضعنا أمام معادلة: **ما من مجتمعين يتحضران بنفس الطريقة أو الأسباب، إذ لكل مجتمع ظروف انفتاحه، مصادر ثرواته، آفاقه الحضارية ومجالات مهاراته وتنوّع مؤسساته.**

وهنا يكمن فعل التغيير بما لدى كل مجتمع من ديناميكية تحرك أو تفاعل في نطاق وجوده المكاني أو سواءً عبر تفاعله الخارجي، لهذا لا يمكن القول بأن هناك مجتمع حديث مئة بالمئة، يقع أقصى اليسار يقابله في أقصى اليمين مجتمع تقليدي، لأن الصفات الحضارية التقليدية تتواجد في كافة المجتمعات والشيء الذي يختلف هو في درجة تطورها و قوة فاعليتها. هذا يعني إمكانية ظهور ثنائية قائمة بين قديم وجديد، أصيل ووافد، تراث وحداثة يمكن أن تتواجد في زمن واحد بأكثر من مكان، هذا التناقض في وجودهما معًا ناتج عن الاختراق الثقافي ـ الإعلامي (كثقافة معاصرة) إزاء المجتمع التقليدي (كثقافة ثابتة) وهذا ما أدى إلى «براغماتية» في الممارسات السلوكية، فالمجتمع التقليدي ليس بمقدوره أن يبقى جامدًا لا بد من مرونة في البنية المعرفية حتى يستمر كمجتمع وكحياة، وبالتالي لم يعد من الممكن أن يبقى منعزلًا عن العالم ومعطياته والمثال على ذلك عادة الثأر السائدة في أوساط العائلات والعشائر باعتبارها إحدى معالم الوعي الشعبي التقليدي، تخبو هذه

الظاهرة تدريجيًا كلما تقدمت البشرية مع سيادة القانون الرسمي.

ولكن كيف تتغير المجتمعات حتى تصبح معاصرة؟ يُرجع المفكر الاجتماعي (أيفرت هاجن) التغير إلى وجود ما يسميه بالشخصية الابتكارية، إذ بحسب نظريته عن تحوّل المجتمعات نحو المعاصرة رأى أنه في المجتمعات السابقة أو المغايرة على العصرنة هناك ظهور قوي **للشخصيات التقليدية**، ذلك أن الشخصيات في هذه المجتمعات هي شخصيات غير خلاقة، غالبًا ما تتميز بنوع من الثبات في ذهنيتها وإن حدثت تغيرات فقد تأخذ وقتًا طويلًا.. أما في المجتمعات المعاصرة فهناك **الشخصية الابتكارية** التي تتمتع بمزايا مثل الإبداع وحب الاستطلاع والانفتاح، وصاحب هذه الشخصية يتطلّع دائمًا نحو حلول جديدة وما إن تتلاقى البيئة المهيّأة للابتكار والظروف والعوامل يتغيّر المجتمع بناءً على إنجازات المبدعين ويصبح عصريًا بمختلف مظاهر الحياة. وهذا ما يؤكده (ديفيد ماكليلاند) الذي اعتبر أن دافع الإنجاز هو الحافز الأول للنمو الاقتصادي.. ذلك أن الذين لديهم رغبة قوية في التحديث وفي أن يحققوا إنجازات على مستوى المشروعات الاقتصادية يمكن أن يطوّروا سبل الإنتاج التي بدورها تخلق مزيدًا من الوظائف ومزيدًا من النمو الاقتصادي الذي يرفع مستوى المعيشة وعندها يُصبح المجتمع عصريًا متقدمًا يواكب التطلعات. ولملاحظة مدى التغير الحاصل بين المجتمعين يمكن قراءة المعطيات التالية:

مجتمعات ما قبل صناعية/ تقليدية	مجتمعات ما بعد صناعية / معاصرة
* مغلق	* حركة اجتماعية قائمة على الإنجازات الشخصية
* متأثر بالطبقة الاجتماعية	* الثروات قائمة على كيفية استخدام المعلومات.
* الاقتصاد بيد جماعات إقطاعية.	القوة الاقتصادية المتضامنة هي الغالبة
* تأثر قوي بالدين وبالقيم الاجتماعية.	* انحسار بالتأثر الديني، والقيم الاجتماعية أصبحت أكثر علمانية. * الدين أصبح أكثر هشاشة مع انتشار ظاهرات أخرى في التدين الجماعي وبروز ظاهرات إيمانية غريبة.
تكاثر سكاني/ التواصل الاجتماعي شفاهي ـ وجاهي.	* انخفاض في نسبة الولادات وتغير في طرق التواصل (اصبح أكثر تقنية). * انتشار مفاهيم تنظيم الأسرة، اكتفاء بعدد محدد من الولادات، الإعلام أصبح أكثر سرعة وأحدث تقنية
التربية (المدارس) مخصصة لأبناء النخبة	اتجاه نحو التخصصية ودخول المهنية العلمية سوق العرض والطلب

يمكن إيجاز التغيرات في المجتمع المعاصر التي حدثت نتيجة العصرنة بالتالي:

- ✓ تغيرات في المكانة الاجتماعية لبعض فئات المجتمع حيث برزت مكانة المرأة والشباب.
- ✓ توجهات نوعية وكمية في مجالات التعليم.
- ✓ تغيرات في تبني قيم واتجاهات جديدة (المصلحة/ . .).
- ✓ ظهور أنماط عمل جديدة لها طابع إداري ـ خدماتي .
- ✓ زيادة الحراك الاجتماعي الأفقي والعامودي.
- ✓ انتشار وسائل الاتصال وآخر مبتكرات التكنولوجيا بشكل ملحوظ.

3 ـ المجتمع الريفي:

في مرحلة تاريخية سابقة بدأت مجتمعات الصيد والالتقاط بالتحول من جمع النباتات في الغابات إلى النشاط الزراعي المنتظم والمستقر، وشاع استعمال الحدائق والمزارع البيتية واستخدام الري لتأمين احتياجاتها الغذائية، ومع تثبّت نمط الحياة الجديد لم تعد المجتمعات مضطرة إلى الانتقال والهجرة فشاعت سمات الحياة الزراعية ومع الوقت برز المجتمع الريفي كنمط معيشي جديد. وللتعريف عن هذا المجتمع يشير الباحث المصري (محمد عاطف غيث)، في كتابه: دراسات في علم الاجتماع القروي إلى أن المجتمع القروي أو الريفي هو مجتمع بشري له طريقة معينة في الحياة تعتمد أساسًا على الزراعة، محددًا ـ في تعريفه لهذا المجتمع ـ ملامح خاصة به تتلخص في قيمتين أساسيتين هما: المهارة في العمل الزراعي، والقدرة على الإنجاب. وهما قيمتان مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا بالمظهرالعائلي للحياة الاجتماعية والاقتصادية، فالرجل يرتفع قدره في العائلة أو ينخفض تبعًا لتفانيه في العمل الزراعي ومدى قدرته على إتقان جميع عملياته وفي إنجابه أكبر عدد من الذكور، لأن الأرض والأولاد هما المظهران المميزان لقوة العائلة وثرائها ونفوذها بين العائلات. وتتجلى صورة هذا المجتمع من خلال الملامح التالية:

أ) **أهمية الأرض**: ثمة علاقة حميمية خاصة بين الريفي وأرضه، فهي أهم القيم المادية في حياته ووجوده، يعتبرها مصدر رزقه ومكانته ومقر جذوره في الحياة والممات، من هنا يطمح قبل كل شيء على أن يقتنيها ويعتني بها وعندما يبتعد عنها أو يهملها يشعر بالذنب. ويتصل بأهمية الأرض بناء المنزل، فالمسكن الريفي دليل استمرار إرث العائلة، لهذا يُلاحظ استخدام الناس في القرى تعبير البيت أو الدار كإشارة لعائلة فلان أو فلان.

ب) **تقدير القرابة**: وسببه انتماء القرويين غالبًا في الأصل إلى جد واحد، ليؤلفوا جميعًا ما يسمى بالبدنة (line age) والتي تعتبر جزءًا من العشيرة (clan) وللنسق القرابي أهميته الخاصة باعتبار أنه يقوم على قواعد حدّدها

الدين من خلال تعابير معينة كالنسب والإرث والمحارم وذي القربى. وقد يحدث في القرى (خاصة اللبنانية فيما مضى) ما يسمى بالغرضيّة أي الموالاة والمناصرة، فإن حدثت مشكلة بين فردين من عائلتين مختلفتين انسحب الأمر كله على كامل أفراد العائلتين وعائلات القرى المجاورة إن كانوا من نفس الآل، فليست الكرامة الفردية التي أهينت بل الكرامة الجماعية لذا لم يكن لـ «الأنا» أي دور أمام «النحن».

ج) **شراكة العمل**: ينتشر بين القرويين نظام عمل زراعي يسمّونه بالمحاصصة، وهو نوع من الشراكة يقدم فيها أحد الشريكين أرضًا ويقدّم الآخر عملًا على أن تتقاسم أرباح الإنتاج بين الشريكين إما بالنصف أو بالثلث أو بالربع أو بالخمس.

د) **التمسك بالروحانيات**: وما يميز أهل الريف أنهم أكثر إيمانًا بالماورائيات، ولا سيما المتعلقة منها بالقضاء والقدر(النصيب) والصبرعلى المكاره والأمل، وإلى جانب التزامهم بالواجبات الدينية ثمة شيوعٌ للمعتقد الخرافي بشكل ظاهر يتمثل في سلسلة من القناعات الذهنية ذات الطابع الغيبي ويُمارس عبر شعائر وطقوس معينة، يلجأ إليها الريفي في يومياته كونها تقدم له خدمة الحماية والبركة (من هنا نلاحظ ظاهرة انتشار المزارات وأضرحة الأولياء والقديسين ووفي النذور وتعليق الأحجبة..).

هـ) **شيوع الغناء الشعبي**: يتغنى الريفيون في مناسباتهم بألوان فطرية من الكلام المنظوم خلال فترات حياتهم المتقلبة بين فرح وحزن وهجرة وقطف مواسم وفقد حبيب، وتلحظ ذلك بوضوح في فنون الغناء المتنوعة: المواويل/ الدلعونا/ الميجانا/ العتابا/ الزلغوطة/ الحوربة/ الندبة/ الزجل.

و) **الاندفاع للمساعدة**: وهو ما يعرف بالعونة أو النخوة، وهي المساعدة الجماعية التي يسديها الجيران لجارهم في الأعمال التي تحتاج إلى أيد كثيرة، ولا تنحصر فقط في أمور زراعية أو يدوية، وإنما تتعداها، إلى المناسبات الاجتماعية (الزواج/ المآتم) أو في حال الكوارث والحريق تهب القرية كأنها يد واحدة .. في هذه العونات تتجلى روح القرية التعاونية التي

تفرضها حياتهم اليومية الصعبة.

ز) **حركة الزمن**: يتحرك الريفي معرفيًا وفق تقويم خاص في فهمه لدورة الزمن، يتجلى أحد وجوهه في الزمن الطبيعي، وهو المرتبط بتغييرات البيئة من حوله، فالسنة بالنسبة له أربعة فصول، والفصول أيامًا معدودات، تعرف فيما بينهم بالسُّعود كما في تقسيمهم مثلًا فصل الشتاء إلى تسعين يومًا (مربعانية وخُمسانية) تبدأ من 22 كانون الأول وتنتهي في 21 آذار يتخللها فترات شديدة المطر والثلوج والصحو والرياح البادرة، تستمر كل واحدة منها اثني عشر يومًا، وغالبًا ما يحسبون أيام التقويم لحاجتهم في الزرع وغرس الأشجار وتقليمها وتهيئة الأرض وحرثها، فلا يصح أن يتم عمل زراعي في زمن طبيعي غير مناسب له، إذن فكرة الريفي عن الزمن الفلكي غير واضحة ومحددة بل الزمن الذي يسيرون عليه هو الزمن الاجتماعي (كما في المواقيت المقررة لإقامة الشعائر: عند المسلمين هناك ما يعرف قبل رمضان أو بعد العيد، ذكرى عاشوراء، موسم الحج.. وعند المسيحيين هناك زمن الصوم وعيد الصليب وعيد السيدة ..).

يمكن تبين خصائص المجتمع الريفي من الفروقات الهامة التي يختص بها لجهة البطالة الموسمية، الخبرة بالطبيعة والمناخ (البواحير)، ارتفاع معدلات الخصوبة والتوالد، تدني الكثافة السكانية للمساحة المسكونة. على أن السمات الأبرز أهمية تلك المتعلقة بما هو فوق العضوي أي البنية المعرفية التي تحكم أبناء المجتمع الريفي بذهنيات ترتبط ارتباطًا وثيقًا بظروف حياته اليومية ومن مظاهرها:

* **وضوح ظاهرة التلكؤ الحضاري**، وسببه صعوبة تنازل الريفيين عن عاداتهم وتقاليدهم فهم متمسكون بالقواعد الاجتماعية والأعراف بشكل ثابت.

* **انخفاض مستوى الطموح** لدى الريفيين اعتقاد بأنه ليس في الإمكان أفضل مما كان. وهذا ما يبرر ظاهرة التواني والتواكل والإحجام عن المغامرة.

* **شيوع قيم اجتماعية سامية**، كالكرم والضيافة والتعاون والطيبة والتسامح والبساطة.

* **سيطرة العائلة**، ولذلك مبرره التاريخي، حيث كانت العائلات الفلاحية تتكاتف للحصول على إنتاج جيد وللتعاون على استثمار الأرض، من هنا لا وجود للفردية بل ليس للفرد وجودًا إلا من خلال عائلته ولأجل عائلته.

تبدو ملامح المجتمع الريفي من النوع الجماعي، أي أن عقل الفرد وتصرفاته وتفاعله هو عقل الجماعة، وهذا العقل يسير بفعل التقليد و بوحي العرف فلا يستطيع عندها الريفي أن يستقلّ في تفكيره. لقول الباحث اللبناني أنيس فريحة في كتابه حضارة في طريق الزوال: «نحن جمعيًا عبيد العرف والتقليد، فالعُرف يحدد السلوك والتقليد يفرض التصرف، وإن الناس لا يجرأون على الخروج عن النورم (السائد) بيسر، لأن الخروج عنه يحتاج إلى جرأة وإقدام وهذا ما لا يتوفر في الإنسان (الريفي)».

إزاء ذلك نتساءل:

- ✓ **هل هذه هي حقيقة الريف اليوم؟ هل هذا واقعه؟.**
- ✓ **هل يمكن القول أنه لازال هناك مجتمع ريفي صرف؟.**
- ✓ **ما الذي تغير في الواقع الريفي ولم يتغير؟.**
- ✓ **كيف يتصف المجتمع الريفي اليوم في لبنان؟ هل مظاهره (العونة) لازالت موجودة مثلًا؟.**
- ✓ **هل لا يزال الريفي بسيطًا في حياته لجهة المسكن والمأكل والملبس؟ وإن تغيّر ما سبب التغير؟.**

للإجابة على ذلك قام باحث اجتماعي لبناني[1] بدراسة منطقة ريفية في

(1) عبد الرحمن قوطه ، «كيف تتغير القرى» صحيفة الديار اللبنانية. 29/ 3/ 1995.

شمال لبنان (بلدة القلمون) حيث لاحظ عددًا من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية عند أبناء هذه البلدة، فقد تحولت من مجتمع يعتمد على الزراعة والصيد البحري والحرف التقليدية (**كصناعة ماء الزهر/ زيت الزيتون/ والصابون / صناعة الملح**) إلى مجتمع اقتصاده يقوم على التجارة (**نحاس الزينة**) والصناعة (**معامل العصائر**) والسياحة (**انتشار متجمات ومسابح على شواطئها**). إلا أن التحول الأبرز برأي الباحث هو الوجه الآخر لهذه التحولات التي وضعت القرية على طريق الحداثة وهو نشوء أنواع جديدة من البنى المعرفية تجلت في وعي سياسي مع ظهور الأحزاب العقائدية والعلمانية. ويرى الباحث ـ استنادًا إلى دراسات ومعطيات ميدانية ـ بأن هذا التحول حدث نتيجة بروز فئة اجتماعية أغلبها من الطبقة الوسطى انخرطت في العمل السياسي حتى أثرت على دور الوجيه التقليدي ومكانته، وأحدثت نوعًا من القطعية المعرفية مع الماضي القائم على ثقافة هوامية أسطورية (**قوامها الجن والإيمان الراسخ بالعفاريت وتأثير الكتبة واعتماد التبصير لكشف المصير والسرقات..**) وإحلال ثقافة أخرى هي العقلانية، ومثل هذا الوعي الجديد أسس بدروه لبنية ذهنية جديدة ساهمت في تحوّلين أساسين تمثلا في:

1) تعديل النظرة إلى المرأة الذي نتج عنه تغيير على صعيد خروجها للدراسة بدل الحقل ومصنع الحرف، بروز أهليتها لوظائف أخرى، حريتها في اختيار شريك الحياة الذي تريد لسهولة الاختلاط مع الشباب في شارع العشاق (وهو شارع في البلدة يتلاقى فيه الشباب والفتيات وكأنه مكان تلقائي للتعارف بعدما كان محظورًا الاختلاط لفترة زمنية طويلة..).

2) تبدل في الإيمان الشديد بالروحانيات نحو أفكار مناقضة تقوم على الشك بمضمون البناء المعرفي القديم القائم، إلى القول بالتعدد والتنوع والمخالفة والالتزام الديني القويم.

بدا من تقصيات الواقع الميداني بالنسبة لهذا الباحث أن هذه البلدة لم

تنتقل في شكلها المورفولوجي من قرية كسائر القرى نحو مجتمع مدني وحسب، وإنما في التحولات التي دخلت على هذه القرية خلال فترة زمنية لا تتعدى الثلاثين سنة. .لتصبح مجتمعًا متحركًا في عالم الأعمال (تصدير منتوجات نحو أسواق عالمية/ دخول عالم التعامل المصارفي/ وانتشار الفيزا كارت بدل التعامل النقدي المباشر) ازدياد وارتفاع المشاريع الصناعية (مشاغل الموبيليا/ وتكرير الملح عبر مصانع حديثة/ وتنظيم سوق استخراج الشراب من الفواكه المعروفة في المنطقة) وعالم الفكر حيث لم يعد القلموني والريفي اللبناني بشكل عام مقيدًا بذهنية معرفية ثابتة، إنما بات يتخذ مواقفه دون أن يكون ملزمًا بروحية المشاركة التقليدية مع انتشار الأحزاب والوسائل الإعلامية والتواصل مع المجتمع الخارجي التي هيأت للجيل الجديد الخروج من كنف الإقطاع السياسي والمالي إلى تأكيد استقلالية الذات.

4) المجتمع المديني:

يُدرس هذا المجتمع من وجهات نظر متنوعة، بتنوع الاختصاصات العلمية، فالجغرافي يهتم بدراسته باعتباره واقعًا سكنيًا/ بشريًا/ اقتصاديًا، على نحو ما يشير الجغرافي (MAX SORRE) الذي اعتبر المدينة (وحدة المجتمع الحضري) ذلك المكان المستقر نسبيًا، يمتاز بكثافة سكانية عالية، يعتمد معظم سكانه على الصناعة والخدمات.

أما الاقتصاديون فإنهم ينظرون إلى المجتمع المديني على أنه المجال الذي تتاح فيه الإنتاجية الاقتصادية والارتقاء بالمرافق التي تشكل القاعدة الاجتماعية للنمو الاقتصادي. وفي الوقت الذي يصف فيه كثير من الباحثين الأميركيين المجتمع الحضري على أنه المجتمع الذي يتميز بوجود المباني الشاهقة والمكاتب الإدارية والتجارية لمختلف الأعمال والعدد السكاني الكثيف (ليس أقله عشرة آلاف) وتعدّد المهن والمراكز العلمية والثقافية؛ ينظر إليه السوسيولوجي من ناحية اعتباره «**طريقة حياة معقدة**» يشتمل على كثير من درجات التحضر والمدنيّة والمجال الأرحب للمشاركة والتمثيل السياسي

وممارسة الحقوق المدنية.

لكن عندما ينظر كثير من علماء الاجتماع إلى «الحضرية» على أنها طريقة حياة تواجههم صعوبة تحديد هذا النمط من الحياة لجهة: كثافة السكان/ لاتجانس أفراده /سهولة الحراك / نسق التفاعل/ أنماط الاتصالات. فالباحث الاجتماعي (ديفيد هارفي) يشدّد في نظريته الاجتماعية حول التحضر على أنه يمثل جانبًا واحدًا من البيئة المستحدثة التي نشأت عن انتشار الرأسمالية الصناعية، أما الباحث (مانويل كاستلز) فإنه يربط بين عملية التحضر والتحضرن من جهة وتنامي الحركات الاجتماعية من جهة ثانية، إذ يعتبر المدينة ليست مجرد موقع جغرافي بل هي في واقع الأمر «عملية استهلاك جماعي» مع وجود الجامعات/ مرافق الترفيه/ خدمات النقل، حيث يقوم الناس باستهلاك منتجاتها بصورة جماعية.. ويؤكد بعض الباحثين في دراساتهم السوسيولوجية على أن المشكلات المتولدة في المراكز الحضرية من جراء عمليات التمدن والاستثمارات والتوسع المادي للحياة يدفع إلى قيام طيف واسع من الحركات الاجتماعية التي تدعو من جملة ما تدعو إلى تحسين الأوضاع وتطوير المواقع السكنية والاحتجاج على التلوث والدفاع عن البيئة والمساحات الخضراء والعمل على الحد من المسائل المتصلة بالانحراف والتشرد والتعصب العرقي أو الإثني وتردّي الخدمات العامة وتطبيق القانون وحفظ النظام.

كان لنمو المدن أثر هائل ليس على عادات الناس وأنماط سلوكهم فحسب، وإنما على أنماط التفكير والقيم، فاللافت أنه مع انتشارها الهائل بدت تظهر مظاهر التفاوت الطبقي واللامساواة الاجتماعية وشيوع الفقر والانحراف والجريمة، حتى افترض دارسو المجتمع الحضري بأنه كلما زاد التحضّر في مكان مديني ما، كلّما لوحظت معه الوقائع التالية:

1 . **سهولة الانحراف عن المعايير**: يوضع المعيار باتفاق الجماعة ويصبح حينئذ مسلكًا اجتماعيًا ينظم علاقات أفراد هذه الجماعة فيما بينهم، ولمّا كان المجتمع المدني من حيث بنائه الاجتماعي يتكون من عدة جماعات

غير متشابهة، غدا الخروج عن المعيار سهلًا نظرًا لانعدام «الرقيب الأخلاقي» (الضمير الجمعي) ولانحسار موجبات العيب.

2 . **تشرد الأحداث**: إن التفكك الأسري ونشوء الخلافات وارتفاع نسبة الطلاق وهجرة الأبناء وغيرها من المشاكل الاجتماعية البارزة في الأحياء المدنية الشعبية، بسبب قساوة الحياة وضغوط متطلباتها التي تنعكس سلبًا على حياة الأسرة وأفرادها، فيتسربون أبناؤها من المدرسة نتيجة الفقر، ويخرجون من بيوتهم تائهين في الطرقات والشوارع للعمل بتلميع الأحذية أو التسول أو الدعارة، أو تكوين عصابات لبيع المخدرات و ابتزاز الناس بالخطف مقابل فدية مالية.

3 .**انتشار البغاء**: يعود انتشار هذه الظاهرة في معظم المجتمعات المدينية إلى انعدام الروابط الاجتماعية الحميمية وهجرة الشباب من الريف إلى المدينة والبحث عن الإثارة والمتعة وغياب الوازع الديني، أو يكون نتيجة الفقر الذي يصيب بعض العائلات حيث ـ وإزاء هذا الواقع المتردي ـ تندفع بعض الفتيات إلى ممارسة الدعارة[1].

4 . **اتساع نطاق العلاقات اللاشخصية**: بمعنى أن التفاعل الاجتماعي في المدينة يتم في دوائر ضيقة جدًا، فعلاقة الأفراد لا تمتد بين بعضهم بعضًا أبعد من علاقة المهنة أو الجيرة والصداقة، ويرجع سبب وجود هذه الظاهرة إلى الزيادة المطردة في عدد السكان من جهة، ولانشغال ساكني المدينة الدائم بشؤونهم وعدم وجود وقت لإقامة العلاقات الاجتماعية الكثيفة.

تمتاز الحياة المدينية اليوم في أغلب المدن الحديثة بشيء من التنوع، ومن الخطأ الكبير أن ينظر إلى سكان المدن على أنهم واحد من حيث المدنيّة، وبأنهم

(1) جاء في تقرير نشرته منظمة العمل الدولية 1998 إلى أن: الكساد الاقتصادي الذي تعانيه كثير من الاقتصادات الآسيوية، واتساع الفوارق بين معدلات صرف العملات من جهة، وانتشار ما يسمى بالسياحة الجنسية وارتفاع معدلات البطالة وبروز الأطفال والنساء كفائض سكاني، واستدراج الفتيات للعمل في مجالات الترفيه والرقص كلها عوامل ساعدت على تنامي ظاهرة البغاء في المجتمعات المدينية، التي تنطوي على كثير من المخاطر في حال استمرارها وتناميها كالعنف، الإجرام، تجارة المخدرات، الاستغلال وانتهاك حقوق الإنسان..).

يتشابهون في نمط الحياة، فالباحث الاجتماعي (HERBERT GANS). وجد بأن هناك خمس فئات بشرية تقطن المدن وهي:

1. متعددو القوميات (cosmopolites) هؤلاء يقطنون المدن باعتبارها مكانًا يقدم لهم فوائد ثقافية وامتيازات فكرية أفضل من أماكن أخرى . .حال الفنانين / الكتاب/ المبدعين . .

2. غير المتزوجين (unmarried & childless people) ترغب هذه الفئة الإقامة في المدن لدواعٍ ترفيهية ولفرص حياة أفضل.

3. الريفيون (ethic villegers) وهم الذين ينزحون من أرياف ويقطنون الأماكن المزدحمة ويعيشون نمط حياة متشدد في البيئة والمصروف، وغالبًا ما يتواجدون في أماكن بعيدة عن سكن الأثرياء.

4. المحرومون (the deprived) وهم الطبقة الفقيرة التي تعيش بخيارات حياة محددة ربما أقل من المتوسط، تعيش على هامش الأبنية السكنية الشاهقة أو في الضواحي من مداخيل جد بسيطة.

5. المتفاخرون (the trapped) بعض قاطني المدن يرغبون بتركها إلى أماكن أخرى (ريفية أو ما شابه) ولكن يؤثرون الحياة المدنيّة لأنها مؤنسة لديهم، فالمدن فيما سبق كانت بالنسبة لهم مكانًا لممارسة مناصب اجتماعية ووظيفية هامة ثم تقاعدوا عنها ولكنهم آثروا البقاء فيها لأنهم اعتادوا نمط الحياة المدنيّة رغم زوال الامتيازات الاجتماعية العالية.

* خلاصة عامة

استُعرض تباعًا أبرز التنظيمات الاجتماعية من خلال مفاهيمها الأكثر شيوعًا: التقليدية، العصرية، الريفية والمدنية، لكن مسألة توضيح الحدود بين هذه المفاهيم بدلالات ملموسة لازالت مثار بحث وجدل، إذ غالبًا ما تتداخل هذه الأنماط فيما بينها عبر التفاعل والتثاقف والتكامل الاقتصادي، فالنمط المديني مثلًا يجسد ذروة الطموح الإنساني عند البشر في مستوى أساليب الحياة المتطورة، لهذا يرد في الدراسات السوسيولوجية: «أن النمط المديني آخر أجيال

العمران البشري» وهذا يعني في دلالته أن المجتمعات تنتقل من طور إلى آخر بناءً على تغيرات إما بنيويّة وإما وافدة من خارجها. وفي فترات تغيّرها قد تتطور نحو نمط مجتمعي آخر وقد تتراجع إلى نمط مختلف ومتخلف في آن..

وهذا ما يصفه باحثو علم الاجتماع بالمرحلة الانتقالية، فالمجتمعات الانتقالية في ظل حركة التحول تأخذ غالبًا إما منحى تنازليًا عندما تنتقل من المجتمع المنتظم المستقر إلى الفوضوي والمشتت. وإما منحى تصاعديًا عند انتقالها من المجتمع البدائي إلى الحضري أو من التقليدي إلى المعاصر أو من الريفي إلى المدني.. في الحالة الأخيرة تحديدًا يحدث ـ نتيجة التفاعل الثقافي ـ انقلاب كلي في المفاهيم القديمة بحيث تزول الشخصية القاعدية الجماعية (النحن) ليحل محلها الشخصية الفردية أو منطق الأنا أمام هجمة المدنية والتقنيات الحديثة ونتيجة الشرخ الذي أحدثه الاغتراب في الهجرات الجماعية من الريف.

إزاء ما تقدم من تعريفات أين يمكن وضع المجتمع العربي؟ بأية سمات وأنماط اجتماعية يمكن أن يُوصف؟ برأي الباحث حليم بركات في مؤلفه: المجتمع العربي المعاصر، يتصف هذا المجتمع بأنه مجتمع شديد التنوع ـ انتقالي يتجاذبه الماضي والمستقبل، الشرق والغرب، التقليد والحداثة في آنٍ معًا. منكفئ على جذوره انكفاءً أصيلًا، سلفي تقليدي أصيل في منطلقاته، مستقبلي متجدد علماني مستحدث في تطلعاته، متصل بالعالم اتصالًا وثيقًا تارة وتارة أخرى نجده هامشي بين مجتمعات العالم الحديث، منفتح في بعض توجهاته ومغلق وجامد في توجهات أخرى، غني في الثروات وفقير في السياسة الاجتماعية، إنه وباختصار تآلف كل هذه التناقضات في عالم متناقض. وإذا ما أردنا وكاستنتاج نهائي أن نختصر المجتمع العربي بناءً على المعالم التي تقدمنا بها فإننا يمكن أن نضعه على متصل انتقالي قوامه المعادلة التالية:

* تقليدي ← تحولي ← عصري

* ريفي ← تحولي ← مديني

من الواضح حدوث تحول في نمط العمران البشري، من مجتمع ريفي ساد لقرون طويلة في بعض الأقطار ولمّا يزل إلى مجتمع حضري حيث أصبح الناس تفضّل السكن فيه وخاصة الأعمار الشابة التي تسعى إلى التعلم في الجامعات ثم الحصول على وظائف مرموقة في القطاعات العامة والخاصة. ومن أهم نتائج هذا التحول تقهقهر العمل الزراعي بسبب النزوح، قيام أحياء فقيرة على جوانب المدن، ازدهار الحركات الاجتماعية والأحزاب.. لهذا يمكن القول بأن تفوق المدينة الواحدة ضمن البلد الواحد لا يعود فقط لعدد سكانها وإنما لمركزيتها واحتكارها للخدمات الإنسانية المتقدمة، ليحدث هذا التفوق المتعدد الجوانب بدوره خللًا في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتنموية والثقافية في المجتمع ككل.